لأول مرة، حصريا وقبل طبعه.. "فقه الجهاد" على صفحات الشروق

أيها المتطرفون.. الشيخ القرضاوي يخاطبكم

الشيخ القرضاوي يؤصل للجهاد الشرعي ويدحض مزاعم المتطرفين

محمد يعقوبي

قال الشيخ القرضاوي في إتصال هاتفي أمس، مع الشروق اليومي انه انتهى لتوه من تأليف كتابه "فقه الجهاد"، ليضاف الى سلسلة إنتاجاته "فقه الصيام، فقه الزكاة، فقه الأقليات، فقه النوازل.." وهو باكورة عمل ست سنوات عكف خلالها فضيلته على دراسة فقهية وواقعية وفلسفية لركن الجهاد في الاسلام، لتصحيح ما شابه من تشويه وتحريف ابتدعه اشباه المتعلمين واشباه المتدينين. وبرغبة من فضيلته تشرع جريدة الشروق إبتداء من غد في نشر الكتاب حرفيا تعميما للفائدة على المسلمين في كل بقاع الأرض.. والكتاب سيأخذ طريقه الى المطبعة في الاشهر القليلة القادمة بحول الله.

الشيخ القرضاوي قال انه خص الشروق بما لم يخص به جريدة في العالم لما لها من تأثير ومصداقية، خاصة وان الامر يتعلق بالجزائر التي عاشت سنوات عصيبة في مواجهة التطرف باسم الدين، لذلك قرر فضيلته وباقتراح من الجريدة ان يضع بين يدي قراء الشروق كل تفاصيل هذا المؤلف العمدة حرفيا لتعم فائدته وتصل رسائله الى كل المعنيين بالامر وبخاصة أولئك المتشددين والمتطرفين في بقاع العالم الاسلامي الذين أغرقوا مجتمعاتهم في الدماء باسم الدين والدين منهم بريء، وقد حدث ذلك في الجزائر وفي مصر وفي ومثله في سوريا وأفغانستان بعد التحرير، ولاتزال رياح هذا التطرف تهدد كثيرا من البلدان الاخرى.

ففقه الجهاد" كتاب من الحجم الكبير يتوزع على 1297 صفحة ضمنها الشيخ، بالإضافة الى التأصيل الشرعي والفقهي لكل ما يمس بحرمة الانسان والدين، مسحا واقعيا دقيقا لتداعيات التطرف وما يفعله في المسلمين الى درجة أصبح فيها الاسلام مقرونا بالارهاب في كثير من البلاد، كما يؤسس الشيخ لعلاقة المسلمين بالآخر أيا كان هذا الاخر والاسس التي ينبغي ان تنضبط بها، وعلاقة المسلمين فيما بينهم وكيفية تأطير التفاعل المذهبي في العالم الاسلامي وتحصينه من الفتن المذهبية وحركات التحرر والتحرير في العالم وبراءتها من الارهاب.. وقد استرسل الشيخ كعادته في سرد الادلة الشرعية الدامغة التي تخرص الالسن وتبيض صورة الاسلام والمسلمين بعد ان حاول المتنطعون تشويهها، كما لم يفت الشيخ ان يذكر خصوم الاسلام والمسلمين بحقوق الانسان والاتفاقات الدولية التي بدا فضيلته ملما بها أحسن حتى من المختصين.

أيها المتشددون.. طالعوا الشروق

لعل الشيخ القرضاوي أتم كتابه في الوقت المناسب على الاقل بالنسبة للجزائر التي انتصرت على الارهاب الاعمى فعلا، لكنها واجهت وتواجه في الاونة الاخيرة "فكرا انتحاريا" دخيلا أودى بحياة كثير من الابرياء، خاصة بعد إطلاق ما يسمى بتنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، الذي وان تعددت الاسماء، فهو امتداد لسياسة التقتيل الجماعي التي عاشها الجزائريون خلال العشرية الماضية، ورغم ان الجزائريين كلهم يدركون الضلال الذي يعيشوه هؤلاء الشباب المندفع في العمليات الانتحارية، الا ان كتاب الشيخ القرضاوي بإمكانه ان يحلحل العقول المتحجرة ويزيل اللبس على كثير من القناعات المنسوبة للاسلام ويعيد المفاهيم الى اصلها ويرد على الاغاليط والافتراءات المنسوبة للاسلام، خاصة إذا لقيت هذه الموسوعة آذانا صاغية من لدن الجماعات المتطرفة التي تدعي استنادها الى أدلة شرعية في ما تتبناه من عنف مسلح.

لهذه الاسباب اختار الشيخ الجزائر؟

لم يغب خيال الشيخ القرضاوي يوما عن الجزائريين حتى وهم يواجهون أخطبوط الإرهاب في عزلة عن العالم، وبقدر ما كان فضيلته يسأل ويستطلع أحوال الجزائر بقدر ما كان أبسط مواطن جزائري يسأل هو أيضا ويستطلع مواقف الشيخ وآرائه من كل الاحداث الأليمة التي مرت على البلاد وعصفت بآلاف من شبابه، بل لم يكن الشيخ يفوت فرصة الظهور الاعلامي حتى ترغرغ عيناه ألما لما يقع لإخوانه الجزائريين، الذين يحبهم، كما لم يحب بشرا على وجه الارض.. ولذلك كان ولايزال وسيبقى لكلمة الشيخ الوقع الاكبر على كيان الجزائريين، سواء تعلق الامر بفتاوى الدين والحياة او بالاراء السياسية والمواقف التاريخية التي لم يتأخر بها الشيخ إنصافا لأهل بلده الذين احتضنوه وأكرموه، فلم يبخل عليهم بجهده ووقته وحبه الخالص..

اما عندما يتعلق الامر بالتطرف والارهاب والعنف الدموي الذي ضرب الجزائر وعصف بخيرة شبابها وزج بالاجيال في أتون الضياع الفكري والشرعي ودفع الالاف منهم الى الانتقام من المجتمع وبألاف آخرين الى الانتحار في أعماق البحار، يصبح موقف الشيخ القرضاوي تماما مثل انبلاج الفجر الساطع بعد ليل حالك الظلمة، ويصبح رأيه كشربة ماء يستجديها التائهون في الفيافي والصحاري، وهو بالضبط حال الجزائريين بالنظر الى غياب المراجع الفكرية والشرعية القادرة على احتواء الداء وتوصيف الدواء لمرض عضال جعل الجزائريين يكفرون ويقتلون بعضهم وفي أحيان كثيرة باسم الجهاد والجهاد بريء مما صنع الحشاشون والمتنطعون والمتطرفون.



● فقه الجهاد..ثمرة 6 سنوات من البحث والتدقيق

شكر خاص لزوجة الشيخ

بذلت السيدة أسماء بن قادة زوجة الشيخ جهدا كبيرا في تواصلنا مع فضيلته، وقد كانت حريصة على نشر كتاب "فقه الجهاد" على صفحات الشروق تعميما للفائدة، خاصة وان السيدة أسماء جزائرية أبا عن جد تعيش يوميات بلدها في الغربة بألم كبير، لاسيما عندما تسمع عن سقوط أرواح في العمليات الانتحارية. وتمنت السيدة ان تصل رسالة فضيلته الى كل القلوب المريضة في العالم لتعود الى جادة الصواب ويعود الخير الى الجزائر إذا صفيت النفوس وتلقى المعنيون بالأمر الرسالة بإخلاص وتجرد.. فشكرا للسيدة وشكرا للشيخ.

الشيخ القرضاوي يؤصل للجهاد الشرعي

مسلحون نزلوا من الجبال في الجزائر بعد أن اقتنعوا بآرائي

فئة ألغت الجهاد وأخرى أعلنته ضد العالم أجمع! ● أفكار جماعات العمل المسلح شبيهة بأفكار الخوارج

رشيد ولد بوسيافة

"فقه الجهاد" كتاب موسوعة وعصارة ست سنوات كاملة من البحث والتدقيق من عالم أفنى حياته في الدعوة إلى الله متسلحا بعلم غزير وفهم عميق لواقع المسلمين، يقع الكتاب في 1266 صفحة ويتكون من خمسة فصول وأربعة ملاحق.

اختار العلامة القرضاوي أن يشرع في تشريحه لمسألة الجهاد ببيان مواقف المسلمين من هذا المبدأ العظيم في الإسلام، حيث انقسمت المواقف النظرية من الجهاد إلى ثلاث فئات، فئة أولى تريد إماتة الجهاد وإسقاطه من حياة الأمة وأن تجعل أكبر همِّها ومبلغ علمها: أن تربِّي الأمة – كما تقول – على القِيَم الروحية، والفضائل السلوكية، وتعتبر هذا هو (الجهاد الأكبر): جهاد النفس والشيطان. ويستثني الشيخ القرضاوي من هؤلاء دعاة التصوف السني الإيجابي الذين ساهموا في الجهاد بنصيب وافر مثل الأمير عبد القادر الجزائري، وعمر المختار والسنوسيين.

ومن بين الذين يريدون إماتة الجهاد في قلوب المسلمين ـ يضيف القرضاوي ـ دعاة العلمانية والمتغربون.

وهنا يعبر القرضاوي عن أسفه من وجود علماء في الشريعة يدينون كل أنواع الجهاد المعاصر صالحها وطالحها، مستقيمها ومنحرفها، معتدلها ومتجاوزها.

أما الفئة الثانية، فهي فئة فهمت الجهاد على أنه (قتال العالم كله): مَن حارب المسلمين أو وقف في سبيل دعوتهم، أو فتن المسلمين في دينهم... ومَن ألقى إلى المسلمين السلم، ومدَّ يد المسالمة والمصالحة للمسلمين، فلم يشهر في وجوههم سيفا، ولم يظاهر عليهم عدوا. فكل الكفار عند هذه الفئة سواء في وجوب مقاتلتهم إذا كان المسلمون قادرين، فالكفر وحده سببٌ كافٍ لقتال غير المسلمين!

ويرد الشيخ القرضاوي على هؤلاء بأن آيات قرآنية كثيرة وأحاديث نبوية تدعو إلى مسالمة من سالمنا والبر الإقساط إلى من لم يقاتلنا ولم يخرجنا من ديارنا، ويضيف الشيخ القرضاوي "هؤلاء لا يرتضون ميثاق الأمم المتحدة، لأنه يمنع الأمة من الجهاد، ويفرض عليها احترام الحدود الإقليمية للدول ذات السيادة، ويوجب حلّ النزاعات الإقليمية بالوسائل السِّلمية".



الشيخ في مكتبة بيته

شباب جاهل ألصق بالإسلام تهمتي العنف والإرهاب

هذا الفكر ـ يضيف المؤلف ـ كان له آثار سيئة على الشباب المخلصين في نيتهم، فحملوا السلاح على قومهم وأهليهم، وباتوا يوزعون تهمة الكفر على كل مَن يخالفهم من الناس، حتى من علماء الدين! ولم يبالوا بمَن قتلوا من البُرآء في سبيل ذلك، حتى ألصقوا بالإسلام تهمة (العنف)، ثم ألصقوا بالإسلام تهمة أخرى، هي تهمة الإرهاب بقتلهم السياح وركاب الطائرات واختطافهم واحتجازهم.

أما الفئة الثالثة، فيصفها القرضاوي بـ "الأمة الوسط"، التي هداها الله إلى الموقف الوسط، وآتاها العلم والحكمة، ورزقها البصيرة في فقه الشرع، وفقه الواقع، فلم تقع في تفريط الفئة الأولى التي تريد للأمة، كما لم تقع في إفراط الفئة الثانية وغلوِّها، التي تريد أن تقاتل المسالمين، وتشنَّ الغارة على الناس أجمعين.

ويقف الشيخ القرضاوي مطولا عند المراجعات الفقهية التي انتهى إليها عدد من الجماعات المتطرفة التي انتهجت منهج الفئة الثانية، حيث قال إني فوجئت بأنهم يأخذون من كتبي التي كانت محرمة عليهم ويمنعون أتباعهم من قراءتها وهو ما دفعني ـ يضيف القرضاوي ـ إلى تأليف كتاب فقه الجهاد بعد كتاب فقه الزكاة.

ويفصل الشيخ القرضاوي في الأسباب التي دفعته إلى التعجيل في تأليف الكتاب وعلى رأسها ما تفعله أمريكا في العالم الإسلامي، حيث تنظر إلى الكيان الصهيوني الذي هو أكبر قوة إرهابية في العالم على أنة ضحية يدافع عن نفسه، فيما تنظر إلى المقاومة الفلسطينية الباسلة بأنها إرهاب، أما السبب الثاني، فهو الغلو الذي وقع فيه الشباب المسلم لأسباب ذكرها بالتفصيل أدت إلى اختياره منهج العنف فنشأ تنظيم القاعدة، ونشأت السلفية الجهادية، كما نشأت قبلهما جماعات الجهاد، وأصبح لها (فقه) تروِّجه، وفكر تسوِّق له، وأمسى لهم تلاميذ ومعجبون، يريدون إعلان الحرب على العالمين، فكان لا بد من الإسراع في الردِّ عليهم، وتفنيد شبهاتهم، التي بها يبسطون سلطانهم على الفتيان الذين لم يتحصَّنوا من الفقه في الدين بما يحميهم من الوقوع بسهولة في أيدي هؤلاء".

قناعات جديدة أعادت شباب الجزائر من الجبال إلى المجتمع

وفي مبحث كامل خصصه الشيخ القرضاوي للفئات التي ستستفيد من الدراسة التي قال عنها إنها أتعبته كثيرا، ويأتي على رأس هؤلاء الشرعيون الذين رسخ في أذهانهم أن الجهاد فرض كفاية على الأمة، وأن من هذا الفرض غزو بلاد الكفار كلَّ سنة مرَّة على الأقلِّ، وإن لم يظهر منهم شيء ضدَّنا، بل مدُّوا إلينا يد المصالحة والمسالمة. وإن كان هذا الرأي يعارض آيات كثيرة صريحة في القرآن، لكن هذه الآيات بطل مفعولها في نظرهم، لأنهم يعتبرونها منسوخة!!

وخص الشيخ القرضاوي الحقوقيين من علماء الحقوق والقانون الدولي، باهتمام كبير فهم يحتاجون إلى الدراسة، لأن أغلبهم كوَّن فكرته عن الإسلام وشريعته، وخصوصا بشأن الجهاد والحرب والسلم، اقتبسوها مما هو شائع في الكتب، وما هو دائر على الألسنة والأقلام. وحق لهم، ما دام علماء الشريعة أنفسهم مشوَّشين من هذه الناحية، فكيف بغيرهم.

أملي أن تتراجع الجماعات المتشددة عن تصلبها

أما الفئة الأهم، فهم الإسلاميون ويقصد بهم نشطاء مختلف الجماعات الإسلامية وبالأخص تلك التي نزعت إلى التطرف، حيث يعتقد الشيخ القرضاوي أن الإنسان هو الإنسان، مهما يتعصَّب وينغلق على نفسه، فلا بد أن يأتي وقت يراجع فيه نفسه، ويمتحن أفكاره، وخصوصا إذا خالفه كثيرون من أهل العلم والفكر. ولهذا ـ يقول القرضاوي ـ أحمل أملا كبيرا في شباب الجماعات الإسلامية المتشدِّدة أن يتراجعوا عن تصلُّبهم، ويقرؤوا الكتاب بتفتُّح وإنصاف... وسيجدون فيه شيئا جديدا يستحقُّ أن يقرأ، وأن يدرس، وأن يناقش. وهنا ضرب الشيخ القرضاوي مثالا بالجزائر حيث قال "إن كثيرا من الإخوة في الجزائر من الجماعات المسلَّحة، تركوا مواقعهم في الجبل، ونزلوا إلى الأرض، وانضموا إلى الشعب؛ بناء على قناعات جديدة. ومنهم مَن أعلن أنه تأثَّر بآرائي واقتنع بها".

الشيخ القرضاوي استهدف بكتابه الجديد كذلك المؤرخين والمفكرين والمستشرقين والحواريين والسياسيين والعسكريين وكذا جمهور المثقفين.

أفكار جماعات العمل المسلح شبيهة بأفكار الخوارج

يقارن الشيخ القرضاوي بين أفكار جماعات العنف المسلح في الجزائر وفي مصر، فيجدها مطابقة لأفكار الخوارج في التاريخ الإسلامي، فقد تميَّز الخوارج بالقول بوجوب الخروج على حكام زمانهم، الذين اعتبروهم ظالمين، بل كافرين، بل إن مجرَّد تسميتهم (الخوارج) تدلُّ على ذلك، أي خوارج على الحكام، كما تميَّز الخوارج بكثرة العبادة، من قيام الليل، وصيام النهار، وتلاوة القرآن، ويورد الشيخ القرضاوي الأدلة التي يستخدمها دعاة العنف المسلح الذين يصفهم بالهجوميين من آيات وأحاديث ويناقشها نقاشا هادئا بالأدلة من الكتاب والسنة النبوية.



بقلم العلامة الإمام يوسف القرضاوي

الحلقة الأولى

حقيقة الجهاد ضاعت بين طرفي الغلو والجفاء

دستور الأمة الإلهي (القرآن الكريم)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال تعالى:

1. ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ × وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ سورةالبقرة:190، 191.

2. ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ سورةالبقرة: 256.

3. ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ سورةالنساء:75،جعلت الآية إنقاذ المستضعفين من براثن الجبارين من أهداف القتال في الإسلام.

4. ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ سورةالنساء: من الآية90.

5. ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ سورةالأنفال:60.

6. ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ سورةالأنفال:61.

7. ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ سورةالتوبة:4.

8. ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ سورةالتوبة:7.

9. ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ سورةالتوبة:36،أي تجمعوا على قتالهم، كما يتجمعون على قتالكم. فهو معاملة بالمثل. وهذه مما قيل إنها (آية السيف)!.

10. ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ سورةمحمد:4.

11. ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ سورةالفتح:1،نزلت هذه الآية وسائر السورة في صلح الحديبية. اعتبره القرآن فتحا، بل فتحا مبينا.

12. ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ × إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ سورةالممتحنة:8،9.

من مشكاة النبوة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

1. "لا تتمنَّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنَّة تحت ظلال السيوف".

متفق عليه عن عبد الله بن أبي أوفى.

2. "دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم".

رواه أبو داود عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

3. رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة قتيلا في غزوة، فقال: "ما كانت هذه لتقاتل". فبعث رجلاً فقال: سقل لخالد: لا يقتلن امرأة ولا عسيفا". رواه أحمد وأبو داود عن رباح بن الربيع.

4. "اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا مَن كفر بالله، لا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا وليدًا".

رواه مسلم عن بريدَة.

5. "لن يبرح هذا الدين قائما، يقاتل عليه عصابة من المسلمين، حتى تقوم الساعة".

رواه مسلم عن جابر بن سمُرة.

6. سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكَر، والرجل يقاتل ليُرى مكانُه، أيهم في سبيل الله؟ فقال: "مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله". متفق عليه عن أبي موسى.

7. "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم".

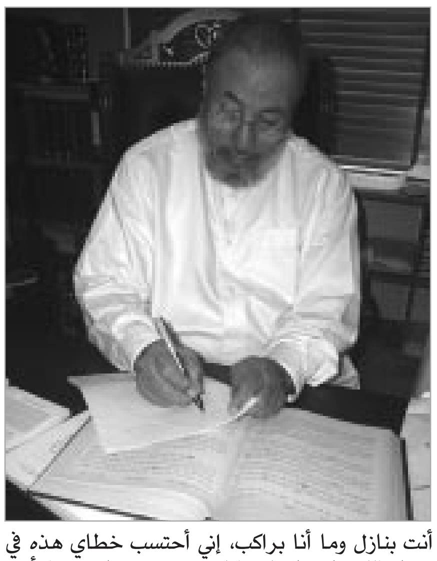
رواه أحمد وأبو داود والنَّسائي وصحَّحه ابن حِبان والحاكم عن أنس.

8. قال جرير: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم في حَجَّة الوداع: استنصت لي الناس، فقال: "لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض".

متفق عليه عن جرير بن عبد الله البَجَلي.

من هَدْي الراشدين

عن يحيى بن سعيد: أن أبا بكر رضي الله عنه بعث جيوشا إلى الشام فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان وكان أمير ربع من تلك الأرباع، فزعموا أن يزيد قال لأبي بكر: إما أن تركب وإما أن أنزل. فقال أبو بكر: ما



أنت بنازل وما أنا براكب، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله، ثم قال له: إنك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له (يعني الرهبان)... وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبيًّا، ولا كبيرا هرمًا، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلا، ولا تغرقنه، ولا تَغلل، ولا تجبن.

رواه مالك في المؤطأ.

وعن عبد الله بن عامر: أنه قدم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه برأس البطريق، فأنكر ذلك، فقال: يا خليفة رسول الله، إنهم يفعلون ذلك بنا! قال: فاستنانٌ بفارس والروم؟ لا يحمل إليَّ رأس! فإنه يكفي الكتاب والخبر.

رواه سعيد بن منصور في سننه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والنسائي في الكبرى.

وعن زيد بن أبي وهب قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، واتقوا الله في الفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب.

رواه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة.

من أقوال أئمة الإسلام

(إذا حُميت أطراف البلاد، وسُدَّت الثغور: سقط فرض الجهاد عن جماعة المسلمين، وبقي نافلة، إلا أن ينزل العدو ببعض بلاد المسلمين، فيجب على الجميع إعانتهم، بطاعة الإمام في النفير إليهم).

ابن رشد الجد، في المقدمات والممهدات (1/263).

(إن الأصل هو إبقاء الكفار وتقريرهم؛ لأن الله تعالى ما أراد إفناء الخلق، ولا خلقهم ليُقتلوا، وإنما أُبيح قتلهم لعارض ضرر وُجد منهم، إلا أن ذلك ليس جزاء لهم على كفرهم، فإن دار الدنيا ليست دار جزاء، بل الجزاء في الآخرة).

ابن الصلاح، في فتاويه (صـ121).

(إن الله تعالى أباح من قتل النفوس: ما يُحتاج إليه في صلاح الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ سورةالبقرة:217،أي إن القتل وإن كان فيه شرٌّ وفساد، ففي فتنة الكفار (اضطهادهم للمؤمنين) من الشر والفساد ما هو أكبر منه. فمَن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرَّة كفره إلا على نفسه ...).

ابن تيمية، في السياسة الشرعية. مجموع الفتاوى (355/28).

(قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ سورةالبقرة:256،هذا نصٌّ عام: أنا لا نُكره أحدًا على الدين، فلو كان الكافر يُقتل حتى يُسلم، لكان هذا أعظم الإكراه على الدين).

ابن تيمية، في قاعدة في قتال الكفار (صـ121).

(مَن تأمَّل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ تبيَّن له: أنه لم يُكره أحداً على دينه قط، وأنه إنما قاتل مَن قاتله. وأما مَن هادنه، فلم يقاتله ما دام مقيما على هدنته، لم ينقض عهده، بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ سورةالتوبة:7.

ولما قدِم المدينة صالح اليهود وأقرَّهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدؤوه بالقتال قاتلهم... وكذلك لما هادن قريشا عشر سنين، لم يبدأهم بقتال، حتى بدؤوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غزاهم في ديارهم، وقبل ذلك كانوا هم يغزونه ...).

ابن القيم، في هداية الحيارى (1/12).

(وجوب الجهاد: وجوب الوسائل لا المقاصد؛ إذ المقصود بالقتال إنما هو الهداية، وما سواها من الشهادة. وأما قتل الكفار فليس بمقصود، حتى لو أمكن الهداية بإقامة الدليل (أي بالحجَّة والإقناع) بغير جهاد: كان أولى من الجهاد).

الخطيب الشربيني، في مغني المحتاج في شرح المنهاج (44/6).

المواقف النظرية من الجهاد:

لقد كتب كثيرون عن الجهاد، وقُدمت فيه عدة أُطروحات للدراسات العليا في عدد من الجامعات الإسلامية والمدنية: ماجستير ودكتوراه، وكتب كثير من الباحثين في الموضوع، وعُنيت به جماعات وحركات إسلامية: علما وعملا ودعوة وتطبيقا، وبعضهم سمَّى نفسه بهذا الاسم مباشرة مثل: جماعات (الجهاد) في أكثر من بلد عربي وإسلامي.

ولكن مشكلتنا في هذه القضايا الكبرى: أن الحقيقة تضيع فيها بين طرفي الغلو والجفاء، أو الإفراط والتفريط، أو (الطغيان والإخسار) وفق تعبير القرآن، الذي قال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ × أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ × وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ سورةالرحمن:7-9.

لقد رأينا في الجهاد ثلاثة مواقف، أو ثلاث فئات:

1. الفئة التي تريد إماتة الجهاد:

1 - فئة تريد أن تُهيل التراب على الجهاد، وأن تسقطه من حياة الأمة، وأن تجعل أكبر همِّها ومبلغ علمها: أن تربِّي الأمة - كما تقول - على القيَم الروحية، والفضائل السلوكية، وتعتبر هذا هو (الجهاد الأكبر): جهاد النفس والشيطان.

ومن الغريب أن يتفق في هذا الاتجاه: دعاةُ التصوف السلبي الموروث من عهود التراجع والتخلف، (على خلاف دعاة التصوف السني الإيجابي الذين ساهموا في الجهاد بنصيب وافر، مثل: الأمير عبد القادر في الجزائر، وعمر المختار في ليبيا والسنوسيين ...)، ودعاةُ العلمانية الدخيلة، المتغربون، يشاركهم عملاء الاستعمار الغربي والشرقي، من اليمين واليسار، الذين يريدون أن يجردوا الأمة من أسلحتها، لتبقى عارية مكشوفة أمام أعدائها، فهاجموا فكرة الجهاد، وحركة الجهاد، قديما وحديثا، واتهموا الجهاد الإسلامي بالعدوانية.

ويرحب بهؤلاء وأولئك جميعا: الاستعمار قديمه وحديثه، ويغذيهم بما يقوِّي عضدهم، ويمدُّهم بكلِّ ما يعينهم على تحقيق أهدافهم، ولقد صنع الاستعمار البريطاني نحلة في الهند: (القاديانية) كان أشهر ما دعت إليه هو (إلغاء الجهاد)، لإخلاء الطريق للاستعمار، ليفرض سلطانه على المسلمين دون مقاومة.

> **من المؤسف حقا: أن يوجد من علماء الشرع ودعاته: مَن يريد أن يَدين كلَّ أنواع الجهاد المعاصر: صالحها وطالحها، مستقيمها ومنحرفها، معتدلها ومتجاوزها، في حين يبرِّر لطواغيت الحكام كل ما تقترفه أيديهم من تعطيل للشريعة، وإفساد للأخلاق، وارتكاب للمظالم**

ومن المؤسف حقا: أن يوجد من علماء الشرع ودعاته: مَن يريد أن يَدين كلَّ أنواع الجهاد المعاصر: صالحها وطالحها، مستقيمها ومنحرفها، معتدلها ومتجاوزها، في حين يبرر لطواغيت الحكام كل ما تقترفه أيديهم من تعطيل للشريعة، وإفساد للأخلاق، وارتكاب للمظالم؛ فكم من دماء سُفكت، وكم من أعراض هُتكت، وكم من حرمات انتُهكت، وكم من حقوق ضُيعت، وكم من كرامات أُهدرت، وكم من ألوف اختُطفوا من منازلهم، ثم ذُهب بهم إلى حيث لا يُدرَى أهم أحياء أم أموات؟ وكم من أناس قُتلوا في سجونهم بأيدي سجَّانيهم، خُفية أو جهرة!! وكم! وكم... وهذا كلُّه حلال مبرَّر. أما المؤثَّم والمجرَّم والمحرَّم، فهو ما تقوم به الشعوب المقهورة، والجماعات المهضومة من تنفيس دفاعي، قد يتجاوز بعضهم فيه، ولكن ربما كان لهم من العذر ما ليس لظالميهم من المعادين لدينهم، الماكرين بملتهم، من الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد.

2. الفئة التي تعلن الحرب على العالم كله:

2 - وفي مقابل هذه الفئة: فئة فهمت الجهاد على أنه (قتال العالم كله): مَن حارب المسلمين أو وقف في سبيل دعوتهم، أو فتن المسلمين في دينهم... ومَن ألقى إلى المسلمين السلم، ومدَّ يد المسالمة والمصالحة للمسلمين، فلم يَشهر في وجوههم سيفا، ولم يظاهر عليهم عدوا. فكل الكفار عند هذه الفئة سواء في وجوب مقاتلتهم إذا كان المسلمون قادرين، فالكفر وحده سببٌ كاف لقتال غير المسلمين!

وكل ما ورد من آيات قرآنية أو أحاديث نبوية، تدعو إلى مسالمة مَن سالمنا أو البر والإقساط إلى مَن لم يقاتلنا في الدين، ولم يخرجنا من ديارنا، أو يظاهر على إخراجنا، ونحو ذلك: فكلها كانت آيات مرحلية، انتهى مفعولها، وأمست موجودة في المصحف خطًّا، معدومة معنًى. فقد نسختها كلها - وهي نحو مائة وأربعين آية أو مئتا آية أو أكثر - آيةٌ واحدةٌ سمَّوها (آية السيف)!

والعجب كل العجب أن آية السيف هذه قد اختلفوا في تعيينها.

هؤلاء لا يرتضون ميثاق الأمم المتحدة، لأنه يمنع الأمة من الجهاد، ويفرض عليها احترام الحدود الإقليمية للدول ذات السيادة، ويوجب حلَّ النزاعات الإقليمية بالوسائل السِّلمية.

كما يرفض هؤلاء الاتفاقية الدولية للتعامل مع الأسرى، إذ يرون أن لهم حق قتل الأسرى بلا قيد ولا شرط، وهذه الاتفاقيات تمنع قتل الأسرى.

كما يرفضون اتفاق العالم كله على (إلغاء الرق)، ويرون في هذا تحريم ما أحلَّ الله، وإبطال ما شرع الله!

ويرى هؤلاء: أن الإسلام إنما انتشر في العالم بالسيف والجهاد، وأن الذين يزعمون أن الإسلام انتشر بالدعوة والحجَّة والإقناع وأخلاق المسلمين، لا بالسيف والسنان، مثل: المؤرخ البريطاني (توماس أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام)، هؤلاء مضلِّلون، يريدون أن يبعدوا المسلمين عن الجهاد، والذين يمدحون مثل هذا المستشرق من المسلمين، إنما هم جهلة بحقيقة الإسلام، وبضاعتهم مُزجاة في علومه، وهم تلاميذ للاستشراق الخبيث!

وقد كان لهذا الفكر آثار سيئة، في أنفس مَن آمن به من الشباب المخلصين في نيتهم، فحملوا السلاح على قومهم وأهليهم، وقاتلوهم وقتلوا منهم، فقد أدخلوهم في زُمرة الكفار الذين يجب قتالهم، لأنهم ارتدُّوا عن الإسلام، وباتوا يوزعون تهمة الكفر على كل مَن يخالفهم من الناس، حتى من علماء الدين! ولم يبالوا بمَن قتلوا من البرآء في سبيل ذلك، حتى ألصقوا بالإسلام تهمة (العنف).

وزاد على ذلك بعضهم، فقتلوا مَن ليس لهم بهم عَلاقة، ولا لهم معهم مشكلة، مثل: السياح وركاب الطائرات والرهائن وأمثالهم، ليرهبوا غيرهم بقتلهم، أو باختطافهم واحتجازهم، وبذلك ألصقوا بالإسلام تهمة أخرى - إلى جانب تهمة العنف - وهي تهمة (الإرهاب).

3. فئة التوسط والاعتدال:

3 - والفئة الثالثة، هي (الأمة الوسط)، التي هداها الله إلى الموقف الوسط، وآتاها العلم والحكمة، ورزقها البصيرة في فقه الشرع، وفقه الواقع، فلم تقع في تفريط الفئة الأولى التي تريد للأمة أن يبقى حقها بلا قوة، ومصحفها بلا سيف، وأن تبقى دارها بلا حُرَّاس، وحرماتها بلا حُماة.

كما لم تقع في إفراط الفئة الثانية وغلوها، التي تريد أن تقاتل المسالمين، وتشنَّ الغارة على الناس أجمعين، وتعلن الحرب على الأحمر والأسود، والشرق والغرب، بدعوى أنها تسوق الناس إلى الله، وتقودهم بالسلاسل إلى الجنة، وتأخذ بأيديهم قسرا إلى الصراط المستقيم، وتزيل الحواجز المادية التي تضعها السلطات الطاغية أمامهم، فلا يُتاح لهم تبليغهم كلمة الله، ودعوة رسوله، ليسمعوها عالية صريحة، خالية من كل شوب. وهذا كان صحيحا في الزمن الماضي، حين كان كسرى وقيصر وأمثالهم من الطواغيت، يقفون عقبة في سبيل شعوبهم وأممهم، فلا يمكن إيصال الدعوة إليهم إلا بالانتصار عليهم، وإزاحتهم بالقوة من طريق الدعوة، وهذا ما فعله الصحابة ومَن اتَّبعهم بإحسان.

أما اليوم فلم نعُد في حاجة إلى ذلك، وقد أتاحت لنا وسائل العصر: أن نبلِّغ العالم كله دعوتنا، وأن نُسمعهم كلمتنا، دون أن يستطيع حاكم منعنا من ذلك. فعندنا القنوات الفضائية التي تملأ الآفاق، والإذاعات الموجَّهة التي تنقل موجاتها إلى أقصى العالم، وشبكة الإنترنت التي تدخل كل بيت دون إذن من أحد، والرسائل والنشرات المكتوبة بلغات العالم، كل هذه الأدوات والآليات هي أسلحتنا القوية والمؤثرة في جهاد العصر، وهي تحتاج إلى جيوش جرَّارة من الدعاة والمعلِّمين والإعلاميين المدربين الأكفاء الأقوياء الأمناء المقتدرين على مخاطبة العالم وأُممه بلغاته المختلفة، وبلسان عصره، وبأساليب عصره، ليبيِّنوا لهم، ويُفهموهم ويؤثروا في عقولهم وعواطفهم.

وهذا - للأسف الشديد - ما لا نملك عشر معشاره، بل ولا واحدا على الألف من المطلوب في هذا الميدان الخطير.

ولقد قلت بحق يوم افتتاح موقعنا العالمي على الإنترنت (موقع إسلام أون لاين. نت - www.Islamonline.net): إن هذا هو جهاد العصر، فمَن كانت له نية في الانضمام إلى ركب المجاهدين، أو رغبة في نيل فضل الجهاد في سبيل الله، بالنفس أو بالمال، أو بالجهد، فهذا هو جهاد اليوم، وهو جهاد كبير، وجهاد طويل.

...يتبع...

الشروق اليومي
الأحد07 سبتمبر 2008 / الموافق لـ 07رمضان 1429 هـ / العدد 2399



الحلقــة الثانيــة

بقلم العلامة الإمـام يوسـف القـرضـاوي

جماعات جهادية عادت إلى كتبي بعد أن حرّمتها على الناس

مراجعات بعض الجماعات الجهادية لنفسها

ومما يجب تسجيله هنا: ما قامت به بعض الجماعات الإسلامية التي تبنَّت مدة من الزمن فكر الفئة الثانية وطبَّقته، وقاتلت وقتلت، وأصابها في سبيل ذلك ما أصابها، من أحكام بالإعدام، وأحكام بالسّجن لمدد تطول أو تقصر. ثم طفقت تراجع نفسها، وتنقد ذاتها، وتستمع إلى غيرها، وتعَود إلى خط الاعتدال والوسط، بعيدا عن الوكس والشطط، وتتراجع عن كثير مما كانت تؤمن به وتصرُّ عليه وتدافع عنه. وهو ما قامت به (الجماعة الإسلامية) في مصر – وهي شقيقة (جماعة الجهاد) – فقد أصدرت عدة كتب سمَّتها (سلسلة تصحيح المفاهيم)، أعلنت فيها تخلِّيها عن كثير من أفكارها القديمة، في شجاعة أدبية تُحسب لها، وتُشكر عليها، وقد صدر منها اثنا عشر كتابا.

ومما فاجأني في هذه الكتب: أني وجدتُهم ينقلون من كتبي صفحات كاملة متتالية، وقد كانت من قبل من (المحرَّمات) التي يرفضون قراءتها، ويحذِّرون منها أتباعهم. فهذا التغيير يدلُّ على أن العقول المغلقة قد عرَفت التفتُّح، والنفوس المتعصبة قد عرفت التسامح، والمواقف المتصلِّبة قد عرَفت اللين، وأن عهدا جديدا قد بدأ، لم يعُد فيه الفرد المسلم أسيرا لرأي واحد، ولشيخ واحد، ولوجهة واحدة، وهذا بلا شك تطوُّر محمود، وإنجاز كبير.

لهذه الاعتبارات وجدتُ من الواجب عليَّ أن أنهض للكتابة في هذا الموضوع، بعد أن شرح الله له صدري، فكم خطَر في بالي منذ أنجزتُ كتابي (فقه الزكاة) أن أكتب شيئا مشابها في (فقه الجهاد). وكم طلب مني إخوة كرام منذ مدة أن أكتب في هذه القضية التي شرَّق الناس فيها وغرَّبوا، واعتذرت لهم بأني لا أجد في نفسي همة لذلك. مع أني قد كنت كتبت فيه من قديم نتفا مبعثَرة، في انتظار أن يحين الوقت للكتابة المنظمة المتصلة فيه، باعتباره أحد الموضوعات الأساسية التي لا بد من الكتابة المنهجية فيها، لحاجة المسلمين خاصة، وحاجة العالم عامة، إلى معرفتها معرفة حقَّة، بعيدة عن غلو الغالين، وتقصير المقصرين.

وها قد آن الأوان للغوص في لُجة هذا البحر الخضم، لبحث الموضوع من جذوره، وردِّه إلى أصوله المُحكمة من نصوص القرآن والسنة، وإعادة قراءتها وتدبُّرها وفقهها في ضوء الأصول الدينية، والمقاصد الشرعية، والقواعد المرعية، والمسلَّمات العلمية والعملية، والرجوع إلى أقوال المتقدمين، والموازنة بينها، وترجيح الراجح منها، وعدم الاكتفاء بالأقوال الشائعة على الألسن، فكثيرا ما تشيع بعض الآراء وتُنشر وتشتهر، حتى ليحسب القارئ أنها الرأي الوحيد ولا رأي غيره، فإذا قرأ وتوسَّع، وراجع ووازن، تبيَّن له أن في الأمر خلافا كبيرا، وأن الأمر الشائع ربما لم يكن هو الأقوى والأصوب.

وقد أوجب الإسراع بالبحث في هذا الموضوع أمران:

1. ما يتعرض له الإسلام وأمته اليوم من غارة شعواء، تريد اقتلاعه من جذوره، فقد أُعلنت عليه حرب لا هوادة فيها، شنَّتها عليه قوى الصليبية الماكرة، والصهيونية الفاجرة، والوثنية الكافرة، تقودها أعتى قوة في الأرض اليوم، متسترة بدعوى حرب (الإرهاب)، وهي دعوى زائفة مكشوفة العَوار؛ فإن أعظم قوة إرهابية في الأرض هي قوة الكيان الصهيوني الغاشم، الذي قامت دولته منذ البدَاية على الأغتصاب والعدوان، والمذابح البشرية، والإحراق والتدمير، ومع هذا تعتبرها القوة العالمية العظمى (أمريكا) مدافعة عن نفسها، وتعتبر السفاح الأكبر (شارون) – رئيس وزراء دولتهم المدللة إسرائيل السابق – ومن بعده أولمرت - رئيس وزراء دولتهم المدلَّلة إسرائيل – رجُلَي سلام!! على حين ترى المقاومة الفلسطينية الشرعية – التي تدافع عن أرضها وعرضها ومقدساتها - جماعات إرهابية عدوانية متَّهمة بكلِّ أنواع الجرائم!!

غلو بعض الشباب المتحمسين في قضية الجهاد، من الذين اشتركوا في المقاومة الأفغانية الباسلة، للشيوعية الغازية الطاغية، بقيادة الاتحاد السوفيتي، وكانت هذه أشرف حرب وأعدلها، للدفاع عن الدين والأرض والعرض، وكانت أمريكا ذاتها تشجعهم وتؤيدهم، وتَفتح لهم المغاليق، وكذلك أقطارهم وحكامهم. فلما انهزم الاتحاد السوفيتي، وانتصر الأفغان المسلمون عليهم: بدأت أمريكا والأنظمة الحاكمة العربية والإسلامية، تقلب لهؤلاء الشباب ظهر المجَن، وأصبح مجاهدو الأمس مجرمي اليوم، وأمسوا يُستَقبلون من المطارات إلى المعتقلات. فدفعوا هؤلاء الشباب دفعا إلى أن يتَّخذوا الغلو طريقا، ويحاربوا العنف بالعنف، قائلين: الشرُّ بالشرِّ يحسم، والبادي أظلم. ولا ننكر أن منهم مَن آمن بفكرة العنف، مع الغير، كما آمن بها الخوارج من قديم. والفكر لا يقاوم إلا بالفكر لا بالعصا والسيف.

وقد تكون نيَّات هؤلاء الشباب حسنة، فكلُّهم أو جلُّهم متديِّنون مخلصون، ولكن الغلو إذا دخل أيَّ شيء أفسده، وفي الحديث: "إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين".

فنشأ تنظيم القاعدة، ونشأت السلفية الجهادية، كما نشأ قبلهما جماعات الجهاد، وأصبح لها (فقه) تروِّجه، وفكر تسوِّق له، وأمسى لهم تلاميذ ومعجبون، يريدون إعلان الحرب على العالمين، فكان لا بد من الإسراع في الرد عليهم، وتفنيد شبهاتهم، التي بها يبسطون سلطانهم على الفتيان الذين لم يتحصَّنوا من الفقه في الدين بما يحميهم من الوقوع بسهولة في أيدي هؤلاء.

ولقد تحدَّث الكثيرون عن الجهاد، فأساؤوا فهمه، ولم يعرفوا حقيقته وأبعاده، ولا أهدافه ومراميه، وضاعت الحقيقة في زحام القيل والقال، وأساء الكثيرون إلى الإسلام وإلى الأمة، وإلى الحضارة والتراث والتاريخ.

والمشكل في كثير من قضايانا العلمية والفكرية: أن بعضا من علمائنا ودعاتنا يتبنون أحد الآراء في المسألة، وربما كان الرأي المشهور، ويعتبرونه هو الإسلام، ويجعلون دفاعهم عنه دفاعا عن الإسلام ذاته، ويعدُّون مخالفيهم فيه كأنهم هم خصوم الإسلام، ويصوبون إليهم سهام الطعن والتجريح المسمومة. والحق أنها وجهات نظر لا أكثر، فلا يجوز أن يتحول البحث فيها إلى معركة يدور فيها القتال، ويقع فيها الفريقان أسرى وجرحى وقتلى!

وهذا ما رأيته في تناول المفكرَين الكبيرَين: أبي الأعلى المودودي، وسيد قطب، رحمهما الله، لقضية الجهاد، برغم حبي واحترامي الكبيرين لكليهما، لما بذلاه في سبيل الإسلام، لكنهما إذا تبنَّيا قضية، تحمَّسا تحمّس المحامين الكبار للدفاع في القضايا الشهيرة، وصالا وجالا، بكلِّ ما يملكان من قدرة وبيان. وهما على كل حال مأجوران في اجتهادهما، أصابا أم أخطآ، وهذه من روائع الإسلام حقا.

> .. قد تكون نيَّات هؤلاء الشباب حسنة، فكلُّهم أو جلُّهم متديِّنون مخلصون، ولكن الغلو إذا دخل أيَّ شيء أفسده، وفي الحديث: "إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين".

منهجي في هذا الكتاب:

ومنهجي في هذا الكتاب يقوم على جملة عناصر أساسية:

1. الاعتماد أساسا على القرآن:

أولا: الاعتماد أساسا على نصوص القرآن الكريم، فهو المصدر الأول للإسلام، الذي لا ريب فيه ولا خلاف عليه، وقد ثبت ثبوتا قطعيا بالتواتر اليقيني، محفوظا في الصدور، متلوا بالألسنة، مكتوبا في المصاحف، وهذا مما لا خلاف فيه بين أحد من الأئمة.

وهو الذي نستمدُّ منه الدليل على حُجيَّة جميع المصادر الأخرى، حتى السنة النبوية نفسها، فيستدل بآيات القرآن الكريم على حُجيَّتها.

ونفهم هذا القرآن في ضوء أساليب اللغة العربية، بحقيقتها ومجازها، مُراعين السباق والسياق، غير متعسفين ولا متكلفين، جامعين بين النصوص بعضها وبعض، موقنين بأن هذا الكتاب يصدِّق بعضه بعضا، ويُفسر بعضه بعضا، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ سورة النساء:82. مؤمنين بأن القرآن ﴿كِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ميسَّر للذكر والفهم، وما قيل: إنه (حمَّال أوجُه) فهذا بالنسبة لـ(المتشابهات) فيه، وهي القليل، أما الآيات المحكمات (البيِّنات) فهي الأكثر، وهي الأصل، ولهذا سمَّاها القرآن (أم الكتاب)، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ سورة آل عمران:7.

ولهذا كان منهجنا أبدا: ردَّ المتشابهات إلى المحكمات، في حين رأينا منهج (الزائغين) ترك المحكمات البيِّنات، والتمسك بالمتشابهات.

مؤمنين كذلك بأن كل نصٍّ في المصحف إنما أنزله الله تعالى، ليهتدي عباده بهداه، ويعملوا بموجبه، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ سورة الأعراف:3، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ سورة الأنعام:155، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ سورة النساء:105.



ومن هنا كان منهجنا: أن الأصل الثابت في ذلك: أن كل ما في المصحف معمول به غير منسوخ ولا مُلغًى، لأن ما ثبت باليقين لا يُزال بالشك. ولهذا توقفنا طويلا عند قول من قال: إن هناك آية في القرآن سموها (آية السيف) نسخت مائة وأربعين آية أو أكثر في القرآن! وناقشنا هذه الدعوى، وأبطلناها بالأدلة، متسائلين: أين آية السيف هذه؟ فقد اختلفوا في تعيينها: أيُّ آية هي؟ وقد أبطلنا بالأدلة: كل ما ادّعوه أنه (آية السيف).

بل اضطرنا الموقف: أن نناقش فكرة النسخ، التي اشتهرت بين العلماء، ولا سيما النسخ في القرآن، وهي فكرة بعيدة الأثر، شديدة الخطر، إذا أُخذت مسلَّمة، وصُدِّقت كل دعوى فيها، دون تمحيص ولا تحقيق، وخصوصا أن كثيرا من السلف كانوا يسمُّون ما عُرف بعد ذلك بتخصيص العام، وتقييد المطلق، وبيان المجمل، ونحو ذلك: نسخا! إذ لم يكن مصطلح النسخ كما عُرف عند المتأخرين قد استقرَّ عندهم. ومَن قرأ ما جاء عن السلف في ذلك، تبين له الأمر بوضوح.

ومن حق كتاب الله علينا: أن نقول لكل ما بين دفتيه: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وألا نضرب بعضه ببعض، أو نأخذ بعضهَ ونعرض عن بعض، فنكون – بوجه ما – على نحو ما كان بنو إسرائيل الذين وبَّخهم الله تعالى بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ سورة البقرة:85، وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ سورة المائدة:49.

2. اعتماد السنة الصحيحة:

ثانيا: الاعتماد على السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وفعله وتقريره، التي جاءت بها الأحاديث التي صحَّ سندها بلا انقطاع ولا شذوذ ولا علَّة، ولا تُعارض ما هو أقوى منها وأثبت: من القرآن أو مَن أحاديث أخرى، أو من منطق العلم والعقل، بحيث تكون مبينة لما نزل به القرآن لا معارضة له، وتسير في ضوء ما أنزل الله من الكتاب والميزان.

ونحن نرحب بكل ما صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيان القرآن، فهو المكلَّف من ربه ببيان ما نزله الله عليه، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النحل:44.

فلا نعتمد على حديث ضعيف في سنده، وإن صحَّحه بعض المشاهير، كما لا نعتمد قاعدة التقوية بكثرة الطرق والشواهد بإطلاق، ولا سيما في الأمور الكبيرة، التي تتعلق ببيان موقف الإسلام من قضايا خطيرة، مثل علاقته بالأمم الأخرى: أهي السلم أم الحرب؟

ولهذا ضعَّفنا حديث: "بُعثتُ بالسيف". الذي اشتهر لدى القائلين بوجوب محاربة العالم كله، ضعَّفناه سندا، وضعَّفناه متنا.

واضطرنا هذا ومثله أن نرجع إلى علم الرجال، وأقوال أهل الجرح والتعديل، وهذا أمر لا يستغني عنه فقيه يريد أن يجتهد لعصره ومشكلات زمانه، وقضايا أمَّته والعالم من حوله.

ولقد نادينا منذ عقود بضرورة الوصل بين الفقه والحديث، فلا يستغني المحدث عن الفقه، ولا يستغني الفقيه عن الحديث، وقد قال بعض كبار السلف: لو كان الأمر بيدنا لضربنا بالجريد: فقيها لا يشتغل بالحديث، ومحدثا لا يشتغل بالفقه.

ولهذا التزمنا: أن نُخرِّج كل حديث نورده في كتابنا هذا، ونبين درجته من حيث الصحة والضعف، أو القَبول والرد، سالكين أقصر السبل، ومعتمدين أوجز العبارات في ذلك، حتى لا نثقل الكتاب بتطويل التخريج، كما يفعل بعض المؤلفين، وهذا فيما عدا ما اقتضاه الموقف من إسهاب لا بد منه. كما نُعنى بتخريج آثار الصحابة وتابعيهم من مصادرها الأصلية، التي اهتمت بنقل أقوالهم بأسانيدها، مثل: المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، والمصنف لابن أبي شيبة، والسنن الكبرى للبيهقي، وكتب الطحاوي وغيرها.

فتوثيق النقول أصل أصيل في منهجنا، معتمدين أعلى المصادر وأوثقها، غير مكتفين بمرجع فرعي أو هامشي أو تجميعي، مع إمكان الرجوع إلى المصادر الأصلية والعليا.

وإذا وجد القارئ في كتابي هذا حديثا ضعيفا، فليس للاحتجاج به أو الاعتماد عليه، إنما قد يكون لمجرَّد الاستئناس به، والعمدة أدلة أخرى، وقد يكون منقولا عن الغير في سياق النقول ومناقشتها، أو غير ذلك.

ومن هنا عنينا بكتب (أحاديث الأحكام) وشروحها، مثل: (عمدة الأحكام) للمقدسي، وشرحه لابن دقيق العيد (الإحكام)، والعدَّة للصنعاني عليه، وكتاب (منتقى الأخبار) لابن تيمية عبد السلام جد شيخ الإسلام، وشرحه (نيل الأوطار) للشوكاني، و(بلوغ المرام) للحافظ ابن حجر، وشرحه (سبل السلام) للصنعاني، وكتب الحافظ البيهقي، وبخاصة (السنن الكبرى)، و(شرح معاني الآثار) للإمام الطحاوي الحنفي، وكذلك (مشكل الآثار) له.

3. الاغتراف من بحر الفقه كله:

ثالثا: الانتفاع بكنوز الفقه الإسلامي، والاغتراف من بحاره الزاخرة، دون تحيُّز لفقه مذهب دون مذهب، ولا انغلاق على إمام دون إمام.

بل نعتبر هذه التَّركة الكبرى ملكا لكل باحث، يغوص في أعماقها، ويطَّلع على خبايَاها، وينقِّب في زواياها، مقارنا بين قول وقول، وبين دليل ودليل، دون تعصُّب لرأي، أو تقليد دائم لمذهب. بل قد نأخذ مرة برأي أبي حنيفة، وثانية برأي مالك، وثالثة ورابعة وخامسة برأي الشافعي أو أحمد، أو داوود، بل قد نخرج في بعض الجزئيات، عن المذاهب السُّنية إلى مذهب الزيدية أو الجعفرية أو الإباضية، إذا وجدنا الحل فيها. وقد نأخذ ببعض المذاهب المنقرضة، مثل: مذهب الأوزاعي أو الثوري أو الطبري.

بل قد نخرج عن المذاهب كلها إلى الساحة الرَّحبة لفقهاء الصحابة والتابعين والأتباع، ممَّن ليس لهم مذهب متبوع، كالخلفاء الراشدين، وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وعائشة ومعاذ وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وتلاميذهم من أمثال مَن عُرفوا بالفقهاء السبعة في المدينة، وغيرهم بمكة والكوفة والبصرة ومصر والشام وسائر الأمصار التي تفرَّق فيها الصحابة وتلاميذهم.

مثل: سعيد بن المسيب وسعيد بن جُبير وعكرمة ومجاهد وعطاء وطاووس، والحسن البصري وابن سيرين وعلقمة والأسود ومسروق والنَّخَعي، والليث بن سعد، وغيرهم.

ننتفع بتراث الفقه الإسلامي بشتَّى مدارسه، بمصادره وكتبه، وخصوصا ما عُني منها بالاستدلال. ولذا نُعنى بكتب الفقه المقارن أكثر من غيرها، مثل: (المحلَّى) لابن حزم (ت465هـ)، و(الاستذكار) لابن عبد البر (ت463هـ)، و(المغني) لابن قدامة (ت620هـ)، و(بداية المجتهد) لابن رشد الحفيد (ت595هـ)، وغيرها.

●●●

ونناقش الأقوال مقارنين بينها، مناقشة علمية موضوعية هادئة، ولا تهولنا شهرة أصحابها، وعلو كعبهم في مجال العلم، ومجال الزهد والتقوى: أن نضعها على مشرحة التحليل والنقد، ونقوِّي أو نضعِّف، ونختار أو نَدَع، وفقا لمعايير الترجيح العلمي، وحسبما يتراءى لنا، ويبلغه اجتهادنا، بعد التحري والبحث واستفراغ الوسع، فلا ندَّعي أن رأينا دائما هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ، وأن رأي غيرنا هو الخطأ الذي لا يحتمل الصواب. بل نقول ما قال أبو حنيفة رضي الله عنه: هذا رأينا، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه. 6ونحمد الله سبحانه: أننا وجدنا - بلا افتعال ولا تكلُّف - في مصادر شريعتنا، وفي فقه أئمتنا الكبار، وفي أقوال سلفنا - منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم - ما يشدُّ أزرنا في اجتهاداتنا ومواقفنا العلمية؛ وخصوصا ما خالفنا فيه الرأي المشهور، أو قول الجمهور.

وقد أمدَّنا الله بعونه وتأييده، لتصحيح بعض المفاهيم المغلوطة، والآراء التي سادت قرونا، وفهمها الناس على غير وجهها، ولا سيما حول ما اشتهر بين الفقهاء: أن فرضا على المسلمين - فرض كفاية - أن يقاتلوا غير المسلمين، ولو كانوا مسالمين لهم، حَسَني الرأي في دينهم، وأن يغزوهم في عقر دارهم، وهو ما يسمونه: جهاد الطلب، وبيَّنا بالأدلة: المراد بذلك، وبماذا يؤدَّى فرض الكفاية ولا سيما في عصرنا.

وفي تتبعنا لآراء الفقه الإسلامي، لا نقتصر على أقوال المتأخرين، من شُرَّاح المتون الشهيرة في المذاهب، والمُحشِّين عليها، وما بها من تفصيلات وتفريعات لا توجد في كتب المتقدمين، كما لا نقتصر على كتب المتقدمين، على ما فيها من أصالة ويسر، بل نجمع بينهما، ونستفيد مما في كلتيهما من علم وهدى. ونحن في هذه وتلك نسترشد بأقوال الفقهاء، ونرى أنها منارات تهدي الباحثين، وتضيء لهم الطريق، وليست أغلالا تكبِّل تفكيرهم، أو تقيِّد حركتهم.

كما نرفض الرأي الذي يرى الاستغناء عن الفقه كله، والبدء من جديد، بالرجوع إلى النصوص وحدها، وقد رددنا على هذا الرأي، وبيَّنا ضعفه في كتابنا (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية).7

إننا نؤمن أن الشريعة الإسلامية ليست هي الفقه الإسلامي، فالشريعة وحي الله، والفقه عمل العقل الإسلامي في استنباط أحكام الشريعة، ولكن الشريعة لا توجد إلا داخل الفقه الإسلامي، أعني مجموع الفقه الإسلامي، وليست الشريعة معلَّقة في الهواء، كما يتوهَّم بعض الناس.

كما نؤمن أن الفقه الحقَّ ليس هو النقل من الكتب، فإن الكتب تمثِّل عصرها وبيئتها. بل الفقه الحقُّ اجتهاد الفقيه لزمانه ومكانه، كما اجتهد السابقون لزمانهم ومكانهم، ولا كلُّ ما صلح لعصر يصلح لغيره، وما صلح لبيئة يصلح لغيرها، ولا سيما أن التغيُّر في زماننا صار شيئا كبيرا جدا، وسيأتي مزيد بحث لذلك في عنصر (الربط بالواقع المعاصر).

1. المقارنة بين الإسلام وغيره من الأديان والقوانين:

رابعا: ولا نكتفي في المقارنة والموازنة بين المذاهب والآراء داخل الفقه الإسلامي ومدارسه، بل قد نقارن بين فقه الشريعة الإسلامية كلها والقوانين الوضعية الغربية، لنبيِّن مدى أصالة الشريعة، ورسوخ أصولها، ومتانة قواعدها، واستقلالها عن غيرها، وجمعها بين المثالية والواقعية، وبين الربانية والإنسانية.

كما نوازن أحيانا بين شريعة الإسلام كما تجلَّت في مصادرها، ولا سيما القرآن الكريم، وما جاء في الشرائع السماوية الأخرى، التي حرفت كتبها وبُدِّلت، كما في شريعة التوراة، وما جاء فيها عن القتال من أحكام تقشعر من قسوتها الأبدان، وهذا ما جعلنا نرجع إلى (الكتاب المقدس) عند النصارى، بعهديه: القديم: المتضمن أسفار التوراة الخمسة وملحقاتها، والجديد: المتضمن الأناجيل الأربعة وتوابعها. حتى لا نرسل القول على عواهنه دون توثيقه.

وقد تبيَّن لنا بالدليل القاطع - كما سنذكر بعد بتفصيل - أن شريعة الإسلام في الجهاد شريعة العدل والرحمة والإحسان، وأن الحرب فيها تحكمها القيَم الأخلاقية في كلِّ جوانبها ومجالاتها، فلا يُقتَل فيها إلا مَن يقاتل، ولا تُقتَل امرأة، ولا طفل، ولا شيخ هرم، ولا راهَب في صومعته، ولا حرَّاث في أرضه، ولا تاجر في متجره، ولا يَشهَر سيف السيف إلا على المحاربين، وأن يد المسلمين ممدودة أبدا لمَن جنح إلى السلم، حتى بعد الحرب... إلى آخر ما هو معروف من أحكام القتال في الإسلام؛ بخلاف ما جاء في التوراة بالنسبة للمدن البعيدة إذا فتحها اليهود وانتصروا على أهلها، فأمر التوراة إليهم: أن اضربوا جميع ذكورها بحدِّ السيف! لم يُستثنَ طفل صغير، ولا شيخ كبير!

أما المدن القريبة - التي يطلق عليها الشرَّاح عليها: أرض الموعد ويعنون بها: أرض فلسطين - فهذه إذا دخلها اليهود وفتحوها، فأوامر التوراة الصريحة المباشرة إليهم: أن أبيدوها عن بكرة أبيها، لا تستبقوا فيها نَسَمة حيَّة. ومعنى هذا: الاستئصال الكامل!8

2. الربط بالواقع المعاصر:

خامسا: ربط الفقه بالواقع المعاصر الذي تعيشه الأمة، ويعيشه العالم، فإنما جُعل الفقه ليحلَّ مشكلات الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة، والأمة المسلمة، والدولة المسلمة، بأحكام الشريعة السمحة، فهو يبحث عن طبٍّ أو دواء لأمراض المسلمين، من صيدلية الشريعة الغرَّاء، لا من خارجها، ويجيب عن أيِّ سؤال يطرحه الفرد أو الجماعة فيما يتَّصل بالدين والحياة، وهو الذي يقود المسيرة الحضارية للأمة على نور أحكام الشريعة الغرَّاء.

والفقيه الحق هو الذي يُزاوج بين الواجب والواقع، كما قال ابن القيم رحمه الله. 9 فلا يعيش فيما يجب أن يكون، مُغفلا ما هو كائن.

ليس الفقيه هو الذي يعيش في برج عاجي، أو في صومعة منعزلة عن الخلق، غريقا في كتبه ومطالعاته، غائصا في الماضي ومشكلاته، بعيدا عن العصر وتياراته، والواقع ومعضلاته، والعالم وأدوائه وآفاته، والمجتمع من حوله وتأوهاته وتطلعاته.



إن على الفقيه المسلم في عصرنا إذا تحدَّث عن الجهاد أو القتال أو الحرب: أن يدرك جيدا حقيقة التغيرات الكبيرة والجذرية في هذا المجال على مستوى العالم، ولا بد له لكي يصدر حكما شرعيا قويما - أن يفرِّق بين الثوابت والمتغيرات.

فمما لا ريب فيه: أن هناك ثوابت في هذه القضية مثل (سنة التدافع) التي قرَّرها القرآن في دفع الله الناس بعضهم ببعض.

ومثل: فرضية إعداد القوة المستطاعة لإرهاب أعداء الله وأعداء الأمة.

ومثل: وجوب قتال الذين يقاتلون المسلمين، وتحريم الاعتداء عليهم بقتل مَن لا يستحقُّ القتل.

ومثل: استبقاء روح القوة والبذل والتضحية في الأمة باستمرار، وتربية أبناء الأمة على ذلك. مع الدعوة إلى السلام والتسامح.

ولكن هناك متغيرات حدثت في العالم، منها: استنكار الحروب والنفور منها، ومن مشعليها.

إن على الفقيه المسلم في عصرنا إذا تحدَّث عن الجهاد أو القتال أو الحرب: أن يدرك جيدا حقيقة التغيرات الكبيرة والجذرية في هذا المجال على مستوى العالم، ولا بد له لكي يصدر حكما شرعيا قويما. أن يفرِّق بين الثوابت والمتغيرات.

ومنها: الرغبة في السلام والتعايش السلمي مع المخالفين.

ومنها: ظهور مواثيق دولية أصبحت موضع احترام العالم كله في الجملة، مثل: ميثاق حقوق الإنسان، وميثاق الأمم المتحدة، وغيرهما.

ومنها: ظهور مؤسسات دولية اعترف بها العالم وشارك فيها، مثل: (هيئة الأمم المتحدة)، و(مجلس الأمن الدولي)، و(محكمة العدل الدولية)، وهيئة (اليونسكو) وتوابعها.

ومن آثار ذلك: وجوب احترام سيادة الدول الإقليمية، ووجوب حلِّ النزاع بين الدول بالطرق السلمية، وتحريم استعمال أنواع معينة من الأسلحة.

ومنها: ظهور اتفاقيات (دولية)، مثل: اتفاقية إلغاء الرق من العالم، واتفاقية جنيف بشأن الأسرى.

ومنها: تغيُّر طبيعة الحرب ذاتها، فلم تعد مبارزة بين بطلين، ولا قتالا بين صفَّين متقابلين، بل اتَّسعت ساحة الحرب بحيث تشمل الوطن كلَّه، أو الأوطان المشاركة كلها، بل قد تصيب غيرهم. واتَّسع مفهوم السلاح وتطوَّر وتنوَّع: دبابات في البر، وغواصات في البحر، وطائرات في الجو. وهذه كلُّها تتغيَّر وتتطور من حين لآخر، فتخترع أسلحة جديدة تلغي القديمة، وأصبحت هناك أجيال من الأسلحة المتطوِّرة التي لم تخطر لأحد على بال.

وغدت قدرة السلاح فائقة وواسعة: صواريخ موجَّهة، وقنابل ذكية، وطائرات بلا طيار، وهناك ما يسمَّى أسلحة الدمار الشامل: النووية والكيماوية والبيولوجية، وهي لا تبقي ولا تذر.

وهذا ما جعلنا نناقش قضية الجهاد العسكري، بأمانة وصراحة وحسم، كما يجسدها عصرنا، وما تفرزه من آثار وتبعات، على المستوى المحلي، وعلى المستوى الإقليمي، وعلى المستوى العالمي، واضعين نُصب أعيننا رؤى الفئات المختلفة كلها للجهاد، من الغلاة والجفاة والمعتدلين.

ولقد وُفِّقنا بحمد الله وتوفيقه: أن وجدنا في مصادرنا الأصلية، في قرآننا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، وفي أقوال أئمتنا منذ عهد أصحاب رسول الله، ومن بعدهم من أكابر فقهاء الأمة: ما يحلُّ كل إشكال، ويجيب عن كل سؤال، ويجعلنا نعيش في عصرنا، وفي عالمنا، بكل قوة وبكل تجاوب، غير غرباء عنه، ولا دخلاء عليه، بل مشاركين فيه، متفاعلين معه، بل سبَّاقين إلى خيره، غير متكلفين ولا متعنتين. نستطيع - في ظلِّ إسلامنا وقرآننا وسنة رسولنا - أن نعيش في عالم ينادي بالسلام لا الحرب، وبالأمان لا الخوف، وبالتسامح لا التعصُّب، وبالحب لا الكراهية، وبالحوار لا الصدام، وبالتعارف لا التناكر.

نستطيع أن نعيش مع الأمم المتحدة، والقوانين الدولية، ومواثيق حقوق الإنسان، والرفق بالحيوان، وجماعات حماية البيئة والخضرة، ولا عجب، فقد كنا السبَّاقين إلى تأسيس القوانين الدولية، وإلى رعاية حقوق الإنسان، ولا سيما الضعفاء والمعُوقين، والرحمة بالحيوان، ورعاية البيئة بكل مكوناتها،10 ورعاية التوازن الكوني.

الحق: أننا وجدنا مشكلتنا الأولى والكبرى مع إخواننا المتشددين والمتصلِّبين، الذين أغلقوا على أنفسهم النوافذ، وأصرُّوا على وجهة نظر واحدة، وتعصَّبوا لها وحدها، لا يريدون النَظر في غيرها، ولم يحاولوا يوما أن يمتحنوا ما عندهم من فكرة توارثوها، ويتَّهمون كل مَن يريد زحزحتهم عنها في دينه وإيمانه، ناهيك بعلمه وفقهه، آفتهم: أنهم يحيون في الماضي لا في الحاضر، وفي الكتب لا في الواقع.

3. تبني منهج الوسطية:

سادسا: لقد تبنّينا في هذا الكتاب - كما في كل كتبنا وبحوثنا - المنهج الذي وفقنا الله إلى اختياره وترجيحه في الدعوة والتعليم والإفتاء والبحث والإصلاح والتجديد، وهو: منهج الوسطية والاعتدال، الذي يجسد قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) البقرة:143، وقوله سبحانه: (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ × وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) الرحمن:8،9، وهو المَنهَج الذي يمثِّل: (الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) الفاتحة:6، الذي ندعو الله أن يهدينا إليه في صَلواتنا كل يوم.

ومن معالم هذا المنهج في الفقه والفَهم والاجتهاد: أن نجدِّد الدين من داخله، وأن نجتهد لحياتنا وعصرنا، كما اجتهد أئمتنا السابقون لحياتهم وعصرهم، وأن نستمدَّ من حيث استمدُّوا، وأن نفهم النصوص الجزئية في إطار المقاصد الكلية، وأن نردَّ المتشابهات إلى المُحكمات، والظنيات إلى القطعيات، والجزئيات إلى الكليات، وأن نشدِّد في الأصول ونيسر في الفروع، وأن نلائم بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر، وأن نصل النقل الصحيح بالعقل الصريح، وألا نتعصَّب لرأي قديم، ولا نتعبد لفكر جديد، وأن نتمسك بثبات الأهداف، ومرونة الوسائل، وأن ننتفع بكل قديم نافع، كما نرحب بكل جديد صالح، وأن نستلهم الماضي، ونعايش الحاضر، ونستشرف المستقبل، وأن نلتمس الحكمة من أيِّ وعاء خرجت، وأن نعرض ما عند غيرنا من منجزات على ما عندنا من أصول وقِيَم، فنأخذ ما يوافقنا، ونَدَع ما لا ينفعنا... إلخ.

على هذا النهج سرنا في بحثنا وفي اجتهادنا وترجيحنا، وكان من توفيق الله لنا: أن اتضحت لنا المحجَّة، وبدت لنا بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

مَن يحتاج إلى هذه الدراسة؟

إن هذا الكتاب، أو هذه الدراسة - التي تعبتُ فيها مباشرة وقصدا لعدَّة سنوات، وتعبتُ فيها بصورة غير مباشرة لعقود من السنين - يحتاج إليها الكثيرون، ليصحِّحوا موقفهم، ويصحِّحوا فَهمهم من قضايا كثيرة.

وليس عجيبا أن يغيِّر الإنسان موقفه أو رأيه في قضية من القضايا، بناء على دراسة أو قراءة، بل هذا هو شأن الإنسان الحر التفكير الذي سلم من التعصُّب والانغلاق. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رسالته لأبي موسى: لا يمنعنَّك قضاء قضيتَ فيه اليوم فراجعتَ فيه رأيك فهديتَ فيه لرشدك أن تراجع فيه الحقَّ؛ فإن الحقَّ قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحقِّ خير من التمادي في الباطل.11

ولا غرو أن غيَّر كثير من الأئمة والفقهاء الكبار آراءهم لأسباب شتَّى، حتى رُوي عن بعضهم في المسألة الواحدة أقوال عدَّة، ربما بلغت العشرة، أو زادت، كما في مذهب الإمام أحمد. وقد رأينا الإمام الشافعي يغيِّر مذهبه بعد أن استقرَّ في مصر في مسائل كثيرة، ولهذا يعرف عند الشافعية: قال في القديم، وقال في الجديد.

1 الشرعيون:

أول من يحتاج إلى هذه الدراسة هم: علماء الشرع، ورجال الفقه، لأن أكثرهم كوَّنوا في رؤوسهم مفاهيم رسخت، وثقافة تُوورثت: أن الجهاد فرض كفاية على الأمة، وأن من هذا الفرض غزو بلاد الكفار كلَّ سنة مرَّة على الأقلِّ، وإن لم يظهر منهم شيء ضدَّنا، بل مدُّوا إلينا يد المصالحة والمسالمة. وإن كان هذا الرأي يعارض آيات كثيرة صريحة في القرآن، ولكن هذه الآيات - كما أشرنا من قبل - بطل مفعولها في نظرهم، لأنها منسوخة!!

وهناك كثير مما كتبه الفقهاء إنما يعبِّر عن زمنه وبيئته، ولا يسنده قرآن ولا سنة صحيحة، مثل عدم بناء الكنائس لأهل الذمَّة أو ترميمها، ومثل تمييزهم بملابس خاصَّة، ونحو ذلك.

وهذا كلُّه لا يلزم الفقيه المعاصر؛ إنما الذي يلزمه محكمات القرآن والسنة، وما أجمعت عليه الأمة بيقين، إجماعا لا يستند إلى مجرد مصلحة ظرفية يتغيَّر الحكم بتغيُّرها.

إننا بهذه الدراسة: نقدِّم لهؤلاء الشرعيين فقها جديدا أصيلا، يستمدُّ أصالته من كتاب الله، ومن صحيح سنة رسول الله، ومن تراث هذه الأمة. كما يستمدُّ جدَّته من التفاعل مع هذا العصر، وقراءة الواقع المعيش، وما في عالمنا من إنجازات هائلة، ومن انحرافات هائلة كذلك. والفقه الحقيقي أو الاجتهاد الحقيقي: إنما هو تفاعل بين النص الشرعي والواقعة المعروضة، وعقل الفقيه، الذي يتأثَّر قطعا بزمانه ومكانه وعالمه.

2 الحقوقيون:

وكذلك يحتاج إلى هذه الدراسة: علماء الحقوق والقانون الدولي، الذين كوَّن كثير منهم فكرته عن الإسلام وشريعته، وخصوصا بشأن الجهاد والحرب والسلم، اقتبسوها مما هو شائع في الكتب، وما هو دائر على الألسنة والأقلام. وحق لهم، ما دام علماء الشريعة أنفسهم مشوَّشين من هذه الناحية، فكيف بغيرهم؟

ومن هؤلاء القانونيين، أناس يطلبون الحقيقة، فإذا بُينت لهم بأدلَّتها، ومن مصادرها، ومن أهلها، فما أقرب ما يستجيبون لها، ويقبلون عليها، وينوهون بها. بل أرى بعض هؤلاء أسرع إلى الاقتناع والرجوع إلى الحقِّ من بعض المنتسبين إلى الشرع، الذين يغلب عليهم الجمود.

الهوامش

1- رواه أحمد في المسند (1754)، والنسائي (3007)، وابن ماجه (3020)، كلاهما في المناسك، عن ابن عباس.

2- للمزيد من معرفة ذلك: انظر: كتابنا (كيف نتعامل مع القرآن) ص43 - 48. الطبعة الرابعة 2005م دار الشروق بالقاهرة.

3- سيأتي تخريجه والكلام عليه.

4- كلمة منسوبة إلى سفيان الثوري وابن عُيينة وعبد الله بن سنان، انظر: العهود المحمدية للشعراني ص9.

5- لمزيد معرفة بموقفنا من السنة: أحيل القارئ إلى كتابي: (كيف نتعامل مع السنة النبوية) نشر دار الشروق بالقاهرة.

6- إعلام الموقعين (85/1).

7- انظر: كتابنا (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية) فصل: (رأي في الاجتهاد المعاصر ومدى جديته وجدواه) صـ247طبعة دار القلم الكويت.

8- انظر: الفصل الخامس (الجهاد بين شريعة التوراة وشريعةالقرآن) في الباب الرابع) أهداف الجهاد القتالي في الإسلام) من هذا الكتاب.

9- إعلام الموقعين (220/4).

10- انظر: كتابنا (رعاية البيئة في شريعة الإسلام) نشر دار الشروق بالقاهرة.

11- انظر: رسالة عمر لأبي موسى في إعلام الموقعين (86/1).

..يتبع..

الشروق اليومي
الإثنين 08 سبتمبر 2008 / الموافق لـ 08 رمضان 1429هـ / العدد2400



الحلقة الثالثة

بقلم العلامة الإمـام يوسـف القرضـاوي

أحمـل أمـلا كبيرا في أن يتراجـع المتشـددون عن تصلبهـم

شاع خطأ أن الإسلام انتشر بالقوة والسيف لا بالإقناع

الإسلاميـون:

كما يحتاج إلى هذه الدراسة – أكثر من غيرهم – الإسلاميون. وأعني بالإسلاميين: الجماعات الإسلامية المختلفة، التي تعمل لنصرة قضايا الإسلام، وهي التي يسمِّيها مَن يسميها: جماعات الإسلام السياسي!! والتي ينضوي تحت لوائها غالبا: شباب الصحوة الإسلامية في شتَّى الأقطار، داخل العالم الإسلامي وخارجه، فهذه الجماعات على اختلاف نزعاتها واتجاهاتها، ما بين معتدل ومتطرِّف: أحوج ما تكون إلى هذه الدراسة؛ وخصوصا مَن عُرفوا باسم (جماعات العنف) التي تنسب نفسها أو ينسبها الناس إلى الإسلام، وهي الجماعات التي اتَّخذت العنف واستخدام القوة العسكرية منهجا لها، وأسَّست لها فقها خاصا تُعرف به، يستشهد بالقرآن الكريم والأحاديث التي تؤيِّد وجهته، ويُعرض عن غيرها من النصوص، التي يعتبرها منسوخة أو مؤوَّلة.

كما يستدلُّ بأقوال لبعض الفقهاء التي توافقه، وتسند وجهة نظره، مغفلا ما سواها من الأقوال.

فهذه الجماعات وإن كانت تُتَّهم بالانغلاق على نفسها، والتعصُّب لآرائها، وعدم نظرها في فقه من يخالفها، مثل جماعة الجهاد، والجماعة الإسلامية، والسلفية الجهادية، وتنظيم القاعدة، وغيرهم: يمكن أن تغيِّر من أفكارها، وتعدِّل من آرائها.

ورأيي أن الإنسان هو الإنسان، مهما يتعصَّب وينغلق على نفسه، فلا بد أن يأتي وقت يراجع فيه نفسه، ويمتحن أفكاره، وخصوصا إذا خالفه الكثيرون من أهل العلم والفكر، ومنهم رجال كبار وثقات، فلا ييأس المرء من أن يثوب هذا الإنسان – ولا سيما المسلم – إلى رشده. وكثيرا ما يهديه عقله - بنصح من غيره، أو بالتأمل في فكره – إلى تغيير موقفه، والرجوع تماما عما كان عليه.

وهذا ما حدث للإخوة في (الجماعة الإسلامية) في مصر، الذين أصدروا سلسلة من الكتب تعلن تراجعهم بشجاعة عن أفكارهم القديمة، وتصحيحهم لكثير من مفاهيمهم.

وعلمتُ أن إخوانهم من (جماعة الجهاد) أقدموا على مثل ذلك (1)

وكثير من الإخوة في الجزائر من الجماعات المسلَّحة، تركوا مواقعهم في الجبل، ونزلوا إلى الأرض، وانضموا إلى الشعب؛ بناء على قناعات جديدة. ومنهم من أعلن أنه تأثَّر بآرائي واقتنع بها.

وقد ذكرتُ أن أبناء الجماعة الإسلامية طفقوا يقرؤون كتبي، وقد كانت من المحرَّمات عليهم، وبدؤوا ينقلون منها في دراساتهم الجديدة صفحات وصفحات. وهكذا شأن الإنسان إذا رجع إلى فطرته ورشده، وزال عنه التعصُّب والانغلاق.

ولهذا أحمل أملا كبيرا في شباب الجماعات الإسلامية المتشدِّدة أن يتراجعوا عن تصلُّبهم، ويقرؤوا الكتاب بتفتُّح وإنصاف ... وسيجدون فيه شيئا جديدا يستحقُّ أن يقرأ، وأن يدرس، وأن يناقش.

كما أرى أن المعتدلين من أبناء الصحوة الإسلامية سيستفيدون من هذا الكتاب في ازدياد اقتناعهم بموقفهم، وأن يبنوا معرفتهم على نور وبصيرة، لا على مجرد التقليد لهذا أو ذاك، وعليهم أن يدرسوه دراسة جيدة، ويتسلَّحوا بما فيه من بيِّنات، ليقنعوا الآخرين بالحجَّة والدليل، لا بمجرد القال والقيل.

4 المـؤرخـون:

ويحتاج إلى هذه الدراسة أيضا: المؤرِّخون، ولا سيما المعنيُّون بالسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، والذين قرؤوا غزوات الرسول قراءة غير صحيحة ولا منصفة، واعتبروا الرسول عليه الصلاة والسلام، هو الذي ابتدأ المشركين بالغزو والقتال، كما في غزوة بدر وفتح مكة وغزوة حنين، وابتدأ غزو اليهود في مواقعهم وحصونهم، كما في بني قينقاع وبني النضير، وهو أيضا الذي بادر بغزو الروم كما في غزوة تبوك.

كما اعتبروا فتوحات الصحابة والراشدين ومن بعدهم إنما كانت ابتداء من المسلمين لجيران مسالمين لهم، من رعايا فارس والروم.

ولهذا شاع عندهم: أن الإسلام لم ينتشر في العالم إلا بالسيف والقوَّة، ولم ينتشر بالدعوة ولا بالإقناع ولا بسلوك المسلمين.

فهؤلاء في حاجة ماسَّة إلى أن يصحِّحوا مفاهيمهم هذه، التي بنَوها على قراءة خاطئة وقاصرة للسيرة والتاريخ، ليعيدوا قراءتها على ضوء ما ذكرناه في هذه الدراسة، مدعَّما بأدلَّته، موثَّقا بمصادره.

5 المفكـرون:

ويحتاج إلى هذه الدراسة: رجال الفكر والبحث والتأمُّل، وخصوصا المهتمِّين بالفكر الإسلامي، وما انبثق عنه من حركات إسلامية، منها المعتدل، ومنها المتطرِّف، وما انبثق عن بعض هذه الحركات من أعمال تتَّسم بالعنف، أو توصف بالإرهاب، مما جعل بعضهم يلصق بالإسلام وحده تهمة العنف والإرهاب، كأن العنف كلَّه إسلامي، والإرهاب كلَّه إسلامي. ومن المؤكَّد أن هذا ليس بصحيح ولا صواب.

سيجد هؤلاء من أهل الفكر والبحث في هذه الدراسة ما يردُّ الأمور إلى جذورها، والفروع إلى أصولها، ويبيِّن أن تعاليم الإسلام الحقيقية، أبعد ما تكون عن العنف والإرهاب - بمصطلحهم - وأن لهذا العنف أسبابا بعضها خارجي، وبعضها داخلي، وأن دعاة العنف قلَّة بين المسلمين، تدينهم الأكثرية وتنكر عليهم. ولا سيما أهل السنة والجماعة الذين يعتبرون هذا اللون من الفكر الذي يتَّسم بالغلو، وتنجم عنه تصرفات تتَّسم بالعنف، إنما هو ميراث من غلاة الخوارج، الذين ذمَّتهم الأحاديث، وحاربهم علي رضي الله عنه وغيره من الخلفاء، وعدَّتهم الأمة مبتدعين، منحرفين عن صراط الإسلام المستقيم، بل منهم من اعتبرهم في عداد الكافرين المارقين.

6 المستشرقـون:

ويحتاج إلى هذه الدراسة: غير المسلمين من رجال الاستشراق والمهتمِّين بالدراسات الإسلامية، سواء كان أساس هذا الاهتمام معرفيا، لمجرَّد اكتشاف الحقيقة، أم سياسيا لخدمة أهداف معيَّنة لدولة ما، أو للغرب عامَّة، أم كانت دوافعه دينية، لخدمة الكنيسة وفكرة (التنصير) الذي اجتمع رجاله من البروتستانت في (كلورادو) سنة 1978م في صورة مؤتمر هدفه تنصير المسلمين في العالم.

هؤلاء صوَّروا الإسلام: أنه خطر على العالم، وسلام العالم، واستقرار العالم، وأن فريضة (الجهاد) فيه تلزم المسلمين أن يحاربوا العالم كله. وقد أثبتت هذه الدراسة بطلان هذا كله، وأن الإسلام أعظم دين يدعو إلى السلام، ويرغِّب في السلام، ويربي أبناءه على حب السلام، وإفشاء السلام، امتثالا لأمر الملك القدوس السلام، وابتغاء دخول الجنة دار السلام.

7 الحـواريـون:

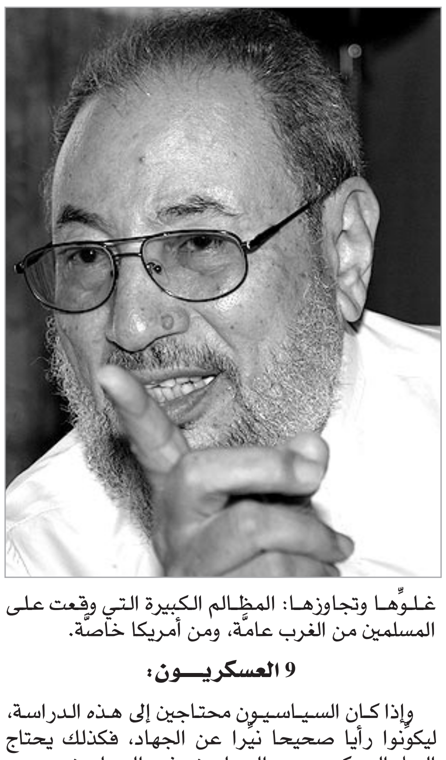
كما أن هذه الدراسة يحتاج إليها: المهتمُّون بحوار الأديان، أو حوار الثقافات والحضارات، فهي في رأيي تقدم لبنة مهمة في بنيان هذا الحوار، الذي يقوى حينا ويضعف حينا، وينهض حينا، ويتعثر أحيانا، نظرا لقصور الرؤية من بعض الأطراف لبعض، وغلبة العصبية على العقل، وانتصار الفكر الموروث على الفكر الحر. ولا يمكن أن يتحاور الناس إذا كان بعضهم يجهل بعضا، وخصوصا بالنسبة للمسلمين الذين يُتَّهمون بأنهم دعاة عنف، وأنهم نشروا دينهم بالسيف، وأن موقفهم أبدا رفض الآخر. وقد رأينا البابا بنديكت السادس عشر يتبنى ذلك في محاضرة له بألمانيا (2). فلعل هذه الدراسة العلمية الموثقة تفتح لهؤلاء صفحة جديدة، وتمكِّنهم من رؤية جديدة، تتغيَّر فيها نظرتهم إلى الإسلام، وإلى أمته، وإلى حضارته.

> **كلمة (الجهاد) أوسع في المعنى من كلمة (القتال)، وإن كان الذي استقرَّ في العرف الفقهي: أن كلمة الجهاد تعني القتال. فهكذا اصطلحوا عليها، ولا مُشاحَّة في الاصطلاح.**

8 السيـاسيـون:

كما يحتاج إلى هذه الدراسة: رجال السياسة وصناع القرار في العالم، والذين يتَّخذون قراراتهم الهائلة، والتي تتعلَّق بمصاير أمم، وأرواح بشر، ومقدَّرات شعوب، ومقدَّسات أديان، بناء على تصورات فكرية عندهم لدين لم يعرفوه، ولم يقرؤوا كتابه، ولم يفقهوا سيرة نبيه، ولم يدرسوا تاريخه، ولم يحيطوا بشيء ذي بال عن عقيدته وشريعته، ولواقع أمة كبرى ذات شعوب مختلفة، وأوضاع مختلفة، لم يعطوا لأنفسهم مهلة أن يتفهَّموا هذا الواقع، ويقرؤوه قراءة بصيرة متأنية، منصفة متوازنة، بلا تهويل ولا تهوين، ولا تحريف، ولا تزييف.

ومما لا شكَّ فيه: أن الرئيس الأمريكي (بوش) الابن ومن معه من المحافظين الجدد، أو اليمين المسيحي المتصهين، حين أعلنوا حربا كونية على الإسلام وأمته، تحت عنوان الحرب على الإرهاب، كان هذا القرار السياسي، نتيجة لتصوُّر خاطئ عن الإسلام، وعن حقيقة الجهاد فيه، وأن فئة قليلة فهمت الجهاد على غير وجهه، ووضعته في غير موضعه، وأن من أكبر أسباب غلوِّها وتجاوزها: المظالم الكبيرة التي وقعت على المسلمين من الغرب عامَّة، ومن أمريكا خاصَّة.



9 العسكريـون:

وإذا كان السياسيون محتاجين إلى هذه الدراسة، ليكونوا رأيا صحيحا نيرا عن الجهاد، فكذلك يحتاج إليها: العسكريون من المسلمين وغير المسلمين.

فمَن فهم الجهاد على غير حقيقته من قادة العسكريين الغربيين، مثل رجال البنتاجون في أمريكا، وأكثر الجنرالات في أوربا، بل في العالم كلِّه للأسف الشديد، فعليه أن يقرأ هذا الكتاب، وعلينا أن نترجمه لهم، ونقرِّبه إليهم بلسانهم لنبيِّن لهم حتى يفهموا. وكثير منهم إذا رأى المنطق أمامه ناصعا خضع له، ولم يستطع أن يكابر، حتى لو كابر أمام الناس سينهزم أمام نفسه. وهذا مكسب كبير.

وهذا ليس مقصورا على العسكريين الأجانب، فكثير من قادتنا العسكريين في بلادنا، ومن بني جلدتنا، وممَّن يتكلَّمون بلساننا، ليست لديهم فكرة سليمة عن الجهاد في الإسلام، وعن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن فتوحات الصحابة والمسلمين في العهود الأولى؛ وذلك بتأثير سلطان الفكر الغربي، والثقافة الغربية على المثقَّفين في أوطاننا، عسكريين ومدنيين.

ومن الواجب على أهل العلم والفكر: أن يصحِّحوا – ما استطاعوا - المفاهيم المغلوطة والشائعة، أداءً للأمانة، وتبليغا للرسالة، وتحصينا للأمة.

ومن العسكريين الذين يحتاجون إلى هذه الدراسة: العسكريون الإسلاميون من أهل الشطط أو الاعتدال، ممَّن يقاتلون في فلسطين، وفي لبنان، وفي العراق، وفي أفغانستان، وغيرها من ديار الإسلام، سواء كانوا من أهل الشطط أم من أهل الاعتدال.

فأما أهل الشطط والغلو، إذا وفَّقهم الله لفقهه والعلم فيه، فسيتعلَّمون منه متى يجوز القتال ومتى لا يجوز؟ أو من يجوز أن نحاربه ومن لا يجوز؟ وإذا حاربنا فما الذي يجوز لنا في الميدان وماذا لا يجوز؟ متى يجوز أن نقتل، ومتى يجب أن نأسر، وما الذي نفعل مع أسرانا؟ وماذا نفعل عند الانتصار، وماذا نفعل عند الانكسار؟ إلخ.

وأما أهل الاعتدال من المجاهدين، الذين يقاومون المحتلِّين والمعتدين على أراضيهم، فهم أيضا لا يستغنون عن هذه الدراسة، حتى يتقيَّدوا في حربهم وسلمهم، وفي حال قوتهم وضعفهم، وفي حال انتصارهم أو انهزامهم بشريعة الإسلام.

فهم يقاتلون بالإسلام وللإسلام، وعلى أساس من الإسلام. فإذا قال لهم الإسلام: قاتلوا. قاتلوا، وإذا قال لهم: توقفوا. ألقوا سلاحهم، وإذا قال لهم: اجنحوا للسلم. جنحوا لها وتوكلوا على الله.

وسيجدون في هذا الكتاب ما يبصِّرهم بما يجب عليهم، وما يجوز لهم، وما يحرم عليهم، وهم وقَّافون عند حدود الله تعالى، نازلون عند حكم الله، يحلُّون ما أحلَّ الله، ويحرِّمون ما حرَّم الله، ويأتمرون بما أمَر الله، وينتهون عما نهى الله. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سورة النور:51.

10 جمهـور المثقفيـن:

ويحتاج إليه أخيرا جمهور الناس من القرَّاء والمثقَّفين العاديين غير المصنَّفين، من المسلمين ومن غير المسلمين. فهؤلاء الذين يمثلون القاعدة العريضة من الأمم والشعوب، في حاجة أيضا إلى أن يعرفوا حقيقة موقف الإسلام من العالم، وحقيقة الجهاد في سبيل الله، الذي فهمه الكثيرون خطأ، وأنه ليس إلا إعداد القوة المادية والمعنوية للحفاظ على كيان الأمة وهُويَّتها وعقيدتها وأرضها وأهلها وحرماتها، وأن كلَّ أحكامه وتصرفاته منضبطة بقوانين أخلاقية صارمة، فلا يقاتل إلا مَن يقاتل، ولا يعتدي على أحد، ولا يبرِّر خبث الوسائل بنبل الغايات، ولا يقبل ازدواج المعايير. وهذا ما يجب أن يعرفه المسلم العادي ليلتزم به، وغير المسلم العادي، ليتعامل مع الإسلام وأهله عن بينة، ولا يحمل عن الإسلام وشريعته فكرة زائفة، فيظلم الإسلام، ويظلم المسلمين، ويظلم نفسه، ويظلم الحقيقة.

* * *

أعتقد أن هؤلاء جميعا وأمثالهم ستنفعهم هذه الدراسة، بعد أن فتحوا أعينهم ليبصروا، وفكُّوا الأغلال من أعناقهم لينطلقوا.

تقسيم الكتاب:

هذا وقد قسَّمتُ هذا الكتاب إلى مقدِّمة وعشرة أبواب وخاتمة، وفي كلِّ باب من هذه الأبواب عدَّة فصول.

فهناك بعد المقدمة: تعريفات أولية للمفاهيم الأساسية التي يدور عليها البحث. وبعدها تأتي أبواب الكتاب:

الباب الأول: حقيقة الجهاد ومفهومه وحكمه، وفيه ستة فصول.

الباب الثاني: أنواع الجهاد ومراتبه، وفيه ثمانية فصول.

الباب الثالث: الجهاد بين الدفاع والهجوم، وفيه اثنا عشر فصلا.

الباب الرابع: أهداف الجهاد القتالي في الإسلام، والفرق بينه وبين جهاد التوراة، وفيه خمسة فصول.

الباب الخامس: منزلة الجهاد وخطر القعود عنه، وإعداد الأمة له، وفيه ستة فصول.

الباب السادس: جيش الجهاد الإسلامي واجباته وآدابه ودستوره، وفيه خمسة فصول.

الباب السابع: بماذا ينتهي القتال؟ وفيه خمسة فصول.

الباب الثامن: ماذا بعد القتال؟ وفيه خمسة فصول.

الباب التاسع: القتال داخل الدائرة الإسلامية، وفيه ثلاثة فصول.

الباب العاشر: الجهاد وقضايا الأمة المعاصرة، وفيه ستة فصول.

وبعدها تأتي: الخاتمة.

ولا أدَّعي أني وفيتُ الموضوع كلَّ حقه، ولكن بذلتُ فيه جهدي، واستفرغتُ فيه وسعي، لأحصِّل وأستوعب ما استطعتُ، وأقرأ واهضم، أقرأ للمتقدِّمين وللمتأخِّرين، وللمحدِّثين والمعاصرين، وللمؤيِّدين والمعارضين، وللدينيين والمدنيين، وأفحص وأوازن، وأرجِّح على مهل، وأختار عن بيِّنة، وقد شرعتُ فيه منذ نحو ستِّ سنوات، ولم أستجب لداعي العجلة، حتى قدَّر الله تعالى إتمامه، وله الحمد والمنَّة. فما كان فيه من صواب ورشد، فمن الله تعالى ومنَّته، وما كان فيه من خطأ وزلل فمنِّي ومن الشيطان، وأستغفر الله تعالى منه.

أدعو الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه، وابتغاء مرضاته، ولا يهدف إلا إلى بيان الحق، ودحض الباطل، ونصرة هذا الدين العظيم، الذي أكرمنا الله تعالى به، وأكمله لنا، وأتمَّ به النعمة علينا، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ سورة المائدة:3 ، وأن يثقِّل به ميزاني يوم القيامة.

كما أدعوه جلَّ شأنه: أن يسدَّ به ثغرة في هذا المجال الخطير، الذي اختلفت فيه الآراء، واعتركت فيه الأفكار، ودخلت فيه الأهواء، وتباعدت فيه الرؤى، واحتاج الناس إلى قول فصل، وحكم عدل، يزن بالقسطاس المستقيم، ويستخلص الحقيقة من ركام الأقاويل المختلفة، والآراء المتباينة، الممزوجة بحماس المتحمسين، وتعصُّب المتعصبين، فعسى الله أن يجعل في كتابنا هذا: ما يقيم الحجَّة، ويوضح المحجَّة، ويحقُّ الحقَّ، ويبطل الباطل، ولو كره المجرمون.

كما أسأله جلَّ شأنه: أن يمنحنا نورا نمشي به في الظلمات، وفرقانا نميز به بين المُتشابهات، وبصيرة نحلُّ بها المشكلات، وأن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، وأن يهدينا أبدا للَّتي هي أقوم.

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ سورة البقرة:286.

●●●



الحلقة الرابعة

بقلم العلامة الإمام يوسف القرضاوي

الجهاد يتصل بفقه الجماعة لا بفقه الأفراد

لا تكفي الحوقلة والتسبيح أمام المفسدين في الأرض



جهاد الدفع وجهاد الطلب:

والجهاد بمفهومه الشرعي الشائع – وهو القتال – ينقسم إلى قسمين أساسيين: جهاد دفع، وجهاد طلب.

والمقصود بـ(جهاد الدفع): مقاومة العدو إذا دخل أرض الإسلام، واحتلَّ منها مساحة ولو قليلة، أو اعتدى على أنفس المسلمين أو أموالهم وممتلكاتهم أو حرماتهم، وإن لم يدخل أرضهم، ويحتلَّها بالفعل – كما يحدث في عصرنا من ضرب البلاد بالطائرات والصواريخ البعيدة المدى – أو اضطهد المسلمين من أجل عقيدتهم، وفتنتهم في دينهم، يريد أن يسلبهم حقَّهم في اختيار دينهم، وأن يُكرههم على تركه بالأذى والعذاب. أو يكون قد تمكَّن من بعض المستضعفين من المسلمين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فسامهم سوء العذاب، وأمسوا يستغيثون ويدعون ربهم: «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً» (النساء:75).

فمقاومة مثل هذا العدو الظالم المتجبِّر، والوقوف في وجهه بالسلاح، ومقابلة القوة بالقوة، هو ما يسمى: جهاد الدفع. مثل جهاد الرسول وأصحابه في غزوتي أحد والخندق، وجهاد الجزائريين للاحتلال الفرنسي، وجهاد الفلسطينيين للاغتصاب الصهيوني.

أما جهاد الطلب، فهو أن يكون العدو في عقر داره، ولكننا نحن الذين نطلبه، ونتعقبه، بغية توسيع أرض الإسلام أو تأمينها، أو نبادئه نحن قبل أن يبادئنا هو، أو لتمكين الجماهير في أرضه من أن تستمع إلى دعوة جديدة، فلا بد من إزاحة هذه الحواجز أمام الشعوب، حتى نبلغ دعوة الله إلى الناس كافة. أو لتحرير الشعوب التي يحكمها الطواغيت، من نير التسلط والجبروت التي يقهرها ويعاملها كالقطعان، أو لغير ذلك من الاعتبارات.

المهم أن هؤلاء الأعداء أو الكفار مقيمون في أرضهم، ولم يبدؤونا بعدوان ظاهر، ولكن نحن الذين نتعقبهم ونطلبهم: ولهذا سُمي هذا النوع من الجهاد (جهاد الطلب) مثل ما قيل عن جهاد الصحابة ومن بعدهم في الفتوحات الإسلامية.

حكمة مشروعية الجهاد:

التكاليف الإسلامية كلها منوطة بحكَم ومصالح لا تعود على الله تعالى، لأنه غني عن العالمَين. وإنما تعود إلى خلقه، فما من تكليف إلاَّ وراءه حكمة ومصلحة للخلق، علمها مَن علمها، وجهلها مَن جهلها. ولكن المقطوع به: أنه سبحانه لا يشرع شيئا عبثا ولا اعتباطا، كما لا يخلق شيئا لهوا ولا باطلا، فإن من أسمائه (الحكيم)، فهو حكيم فيما خلق، وحكيم فيما شرع. فما الحكمة من شرعية الجهاد في الإسلام؟ هذا ما نلقي عليه شعاعا من ضوء في هذه السطور.

لم يكتف الإسلام من المسلم أن يعبد الله في نفسه بالصلاة والصيام والدعاء والتسبيح بالعشي والإبكار. ولم يكفه منه أن يعبده تعالى ببذل جزء من ماله زكاة وطُهرة، ومواساة للضعفاء، وإسهاما في مصالح الأمة العليا، ولم يكفه منه أن يحجَّ بيته، ويرحل إلى الأرض المقدسة في مكةَ لأداء المناسك، باذلا من نفسه وماله في سبيل الله.

أجل، لم يكفه ذلك من المسلم، ما دام في الدنيا باطل يناوئ الحق، وشَر يغالب الخير، وفساد يقف أهله في وجه الإصلاح والمصلحين.

لم يرضَ من المسلم أن يلزم بيته، ويغلق عليه بابه، ويعبد ربه في خاصة نفسه، ويترك أبالسة الشر وطواغيت الباطل، يعيثون في الأرض فسادا، ويفعلون بالحقائق والقيم الرفيعة ما تفعل النار بالهشيم، ويكتفي هو بالحوقلة والاسترجاع والتسبيح والتهليل!

ولكنه فرض على المسلم عبادة يسهم بها في مقاومة الشر، كما أسهم بعبادة الزكاة في فعل الخير، تلك هي عبادة (الجهاد في سبيل الله): أي بذل الجهد الممكن بالنفس والمال، والعقل واللسان في نصرة الحق والخير. إنها ليست عبادة (شعائرية) كالصلاة والحجِّ. لكنها عبادة بالنيَّة والهدف من ورائها، وإن كانت في حقيقتها من المعاملات.

أُمر المسلم بهذه الفريضة كما أُمر بالصلاة والصيام والزكاة، سواء بسواء، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (المائدة:35)، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ × وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ» (الحج: 77، 78).

وجَعل هذا الجهاد من دَلائل الإيمان الحق، وأنكر على قوم زعموا الإيمان من غير استعداد للبذل والجهاد: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (الحجرات:14)، ثم بيَّن تعالى من هم المؤمنون حقا فقال: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» (الحجرات:15).

كما أنكر على المنافقين تخلُّفهم عن الجهاد بتعلُّلات وأعذار شتَّى يختلقونها، كما قال تعالى: «وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ، لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (التوبة:88).

إن المسلمَ صاحب رسالة عالمية شاملة، لا يصلح لحملها السلبيون والانعزاليون، وإنما يحملها الإيجابيون المجاهدون.

رسالة غايتها أن يسود الحق والعدل، وينتشر الخير والهدى، ويعم الصلاح والاستقامة، وتعلو كلمة الله في أرضه.

رسالة جاءت لتقاوم الضعف في النفوس، والزيغ في العقول، والانحراف في السلوك، والبغي في الجماعات، والطغيان في الحكومات، والتظالم بين الأمم والشعوب.

رسالة جاءت لتزيل الوساطة المصطنعة بين الله وعباده، وتحطِّم الفوارق المفتعلة بين الناس بعضهم وبعض.

رسالة تقول للضعفاء: شدُّوا سواعدكم.
وتصيح في الأذلاء: ارفعوا رؤوسكم.
وتصرخ في النائمين: هبُّوا من سُباتكم.
وتنادي المستعبدين: حطِّموا قيودكم.
وتدعو المستكبرين: أن انزلوا من عروش كبريائكم.
وتقول للأغنياء: أنفقوا من مال الله لا من أموالكم.
وتقول للحكام: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» (النساء:58).
وتقول للمتفاخرين بالأنساب: «... من بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه» (1)
وتقول للمتسلطين على الضمائر من أهل الكتاب: «تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» (آل عمران:64).
وتقول للناس جميعا: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» (الحجرات:13).

من المعروف: أن شريعة الإسلام - في شؤون العبادة: تفصِّل وتحدِّد وتنظِّم، لأنها لا تتغيَّر كثيرا بتغيُّر الأزمان والبيئات والأحوال، وفي شؤون المعاملة تدع مجالا رحبا للعقل المسلم، ليجتهد ويجدِّد ويضع الأطر والتفصيلات حسب حاجات الزمان والمكان، وما يقتضيه تطوُّر الإنسان.

ومثل هذه الرسالة الثورية الشاملة: لا بد أن يكون لها خصوم معاندون، وأعداء مكابرون، منهم من يدافعون عن عقائدهم الموروثة: «إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ» (الزخرف:23)، ومنهم من يدافعون عن مصالحهم، وينافحون عن نفوذهم ووجودهم. فلا غرابة أن يردُّوا حقها بالقوة، ويصادروا دعوتها بالسيف، ويصدُّوا دعاتها بالجبروت والعسف. ولا يمكن لمثل هذه الرسالة العامة الخالدة أن تغمض العين على القذى، وتسحب الذيل على الأذى، وترضى من الغنيمة بالإياب، وتدع قيصر يعبث في الحياة، ويأخذ سلطان الله لنفسه!!

لقد آن الأوان أن يعلم الناس: أن قيصر وما لقيصر لله الواحد القهار. وأن الله لا يخضع لحكم قيصر، ولكن قيصر هو الذي يخضع لحُكم الله.

وإذن فلا بد لهذه الرسالة ودعاتها من صدام مع الطغاة والمتجبِّرين، مع القياصرة وأشباه القياصرة، مع أدعياء التألُّه في الأرض، مع الفراعين والقوارين والهوامين(2) فعلى المسلم أن يعدَّ العدة، ويأخذ الأهبة، ويحمل سيف الحق، ومعول التطهير، ليهدم صروح الباطل والشر، ويدكَّ عروش الظلم والطغيان، ويرسي دعائم العدل والحرية للعقائد كلها: «حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» (الأنفال:39).

فمن فهمَ طبيعة الرسالة الإسلامية: لم يصعُب عليه تصوُّر الجهاد فريضة من فرائضها، وعبادة من عباداتها، «لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» (الأنفال:8).

ولقد كان الله تعالى ينتقم لرسله وللمؤمنين – قبل الإسلام – من الطغاة المكذِّبين الصادِّين عن سبيل الله، بنقَم سماوية، وخوارق كونية، يُنزلها بأعدائه، فتدمر عليهم، وتجعلهم حصيدا خامدين. كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون وهامان وقارون وغيرهم. قال تعالى: «فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (العنكبوت:40).

ولكن اللهَ فضل هذه الأمة الخاتمة، فلم يجعل الخوارق الكونية أساسا في ثبوت رسالتها(3)، ولا في نصرة دعوتها. ولو شاء الله لخسف بأعدائها الأرض، أو أسقط عليهم كسفا من السماء، وأراح رسوله والمؤمنين من عناء الجهاد، ولكن شاء الله أن تمضي هذه الأمة في مسيرتها على سُنن الله المعتادة، فتكابد وتتألَّم، وتصبر وتصابر، وتبذل وتضحي، وتهاجر وتجاهد، وتنتصر وتنكسر، ويتخذ الله منها شهداء، وبهذا يتبيَّن ويتأكَّد حكمة الابتلاء الذي قام عليه أمر التكليف كله، وقام على أساسه الثواب والعقاب، وقامت سوق الجنة والنار.

«إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ × وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ × أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» (آل عمران:140–142).

فقد شاء الله أن تقوم هذه الحياة وهذا الكون على الازدواج: الخير مشوب بالشر، واللذَّة ممزوجة بالألم، والإنسان يتنازعه العقل والغريزة، وتتعاوره الصحة والسقم، والعالم يتعاقبه النور والظلمة، أو الليل والنهار، وهكذا: في الكون المادي نور وظلام. وفي العوالم الغيبية ملائكة وشياطين، وفي بني الإنسان أخيار وأشرار، وفي النفس الإنسانية خواطر يلهمها ملك، ونزغات يوسوس بها شيطان...

وقد ابتلى الله المؤمنين بالكافرين، كما ابتلى الكافرين بالمؤمنين، وأعطى كلاًّ منهم عُدده وأسلحته وأعوانه، وجعل بعضهم لبعض فتنة، ليبلوَ أخبارهم، ويمتحن من يتولاه ويتولى رُسله ممَّن يتولى الشيطان وحزبه، وفي ذلك يقول تعالى: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً» (الفرقان:20)، «ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ» (محمد:4)، «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ» (محمد:31)، وهو تعالى عليم بذات الصدور، ولا يخفى عليه خافية في الأرض أو في السماء. ولكنه يعامل عباده معاملة المختبر، ليجزيهم بما عملوا، لا بما علم أنهم سيعملونه، ويقيم عليهم الحُجَّة، ويبطل الأعذار والتعلاَّت «فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ» (الأنعام:149).

هل الجهاد من شؤون الدين أم من شؤون الدنيا؟

وربما يثير بعض الناس – وبعضهم من أهل العلم الشرعي – سؤالا، مضمونه: هل الجهاد من شؤون الدين أو من شؤون الدنيا؟

ويمكن صياغته بعبارة تجعل الجواب سهلا، إذا قلنا: هل هو من شؤون العبادات أو من شؤون المعاملات؟

فمن المعلوم المتوارث: أن فقهاءنا قسَّموا الفقه الإسلامي إلى قسمين كبيرين: قسم (العبادات)، وقسم (المعاملات).

ويعنون بالعبادات: الفرائض الدينية الشعائرية الكبرى، التي اعتبرها الحديث النبوي، واعتبرها المسلمون بعد ذلك أركان الإسلام، ومبانيه العظام، وهي: الشهادتان، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام.

وقد صحَّ فيها حديث ابن عمر المشهور المتَّفق عليه: «بُني الإسلام على خمس...»(4) وعدَّد هذه الأمور.

كما يعنون بالمعاملات: ما يتعلَّق بشؤون الحياة المختلفة، مما يتعلَّق بالفرد، مثل: الحلال والحرام، وما يتعلَّق بالأسرة، مثل: الزواج والطلاق والميراث والوصايا ونحوها، وما يتعلَّق بالمجتمع ومعاملاته المدنية والتجارية ونحوها، وما يتعلَّق بالدولة ومسؤولية الحاكم فيها، وشروطه وواجباته وحقوقه، وحقوق الأمة عليه، وواجباتها نحوه، وهو ما تنظِّمه في عصرنا القوانين الدستورية والإدارية، وما يتعلَّق بالأمة – أمة الإسلام الكبرى - من وجوب وحدتها في مرجعيتها ودارها وقيادتها، واحتكامها إلى الشريعة مصدرا لها. وكيف تكون علاقتها الدولية بالأمم الأخرى في حال السلم، وفي حال الحرب.

وهنا يدخل (الجهاد) بمعنى (القتال) والإعداد العسكري ضمن ما يتعلَّق بالأمة والدولة، لأن مهمَّته الحفاظ على كيان الأمة المادي والمعنوي، وحراسة دينها ودنياها من عدوان المعتدين، وأطماع الطامعين. فالجهاد يتَّصل بفقه الجماعة، لا بفقه الأفراد. ولا ينتقل إلى الأفراد إلا إذا فُقدت الجماعة، ودخل العدو دارها، ولم تجد مَن يدافع عنها. فهنا يحقُّ على الأفراد أن ينظِّموا أنفسهم، وأن ينشئوا منهم جماعة تقوم مقام الإمام أو وليّ الأمر الشرعي. إذ بدون ذلك لا يمكن أن يقاوموا عدوَّهم، ولا أن يحرِّروا أرضهم. وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب.

وهنا ننظر للجهاد من أفق واسع، من خلال فقه (السياسة الشرعية) التي تقوم على (فقه الموازنات) بين المصالح والمفاسد بعضها وبعض، وعلى فقه (المقاصد) الذي ينظر إلى رُوح الشريعة وأهدافها الكلية، ولا يتوقَّف عند نصوصها الجزئية، وعلى (فقه المآلات) الذي ينظر إلى النتائج والآثار، حتى إنه قد يحرم بعض المباحات إذا ترتَّب عليها مفسدة محقَّقة، كامتناع الرسول الكريم عن قتل المنافقين، حتى لا يتحدَّث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، وقد يرتكب بعض الممنوعات، لتحقيق مصلحة كبيرة، أو درء مفسدة عظيمة، كما في خرق الخضر عليه السلام للسفينة لينقذها من اغتصاب الملك الظالم لها... وعلى (فقه الأولويات) بحيث يضع كلَّ عمل في مرتبته، ولا يكبِّر الصغير، ولا يهون العظيم.

واعتبارنا الجهاد من قسم المعاملات، لا يفصله تماما عن الدين، فإن الدنيا في الإسلام ممزوجة بالدين، والدولة متَّصلة بالدعوة، والمعاملة مرتبطة بالعبادة، وليس فيه فصل مطلق بين الأمرين، كما هو في النصرانية: أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله! فإن الإسلام لا يقبل قسمة الحياة بين الله وقيصر، ولا يقبل قسمة الإنسان شطرين: روحه توجهها الكنيسة، وجسمه وعقله توجههما الدولة! لا يقبل الإسلام هذه المثنوية، وهي لا تتَّفق مع حقيقة الحياة ولا حقيقة الإنسان، والعلم المعاصر ينكرها، كما أن الواقع يرفضها.

ومن المعروف: أن شريعة الإسلام – في شؤون العبادة: تفصِّل وتحدِّد وتنظِّم، لأنها لا تتغيَّر كثيرا بتغيُّر الأزمان والبيئات والأحوال، وفي شؤون المعاملة تدع مجالا رحبا للعقل المسلم، ليجتهد ويجدد ويضع الأُطر والتفصيلات حسب حاجات الزمان والمكان، وما يقتضيه تطوُّر الإنسان.

ولهذا جاءت السياسة الشرعية في (منطقة العفو) التي تركها الشارع الحكيم قصدا بدون نصوص ملزمة، توسعة وتيسيرا على الناس، أو جاء النص عليها بطريق كلِّي، كما في قضية الشورى والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحوها(5).

ومن المهم هنا: أن نقرِّر أن بعض العبادات الكبرى مثل (الزكاة) هي في الواقع من صُلب شؤون الحياة، فهي تدخل في النظام المالي والنظام الاجتماعي في الإسلام، ولها علاقة بالاقتصاد والسياسة، كما بيَّنا ذلك في كتابنا (فقه الزكاة).

كما نقرِّر أيضا: أن الجهاد إذا كان مشروعا، وصحَّت فيه النية، والتُزمت فيه حدود الله، وأخلاقيات الإسلام: يعد من أعظم ما يتعبَّد الله به، ويتقرَّب إليه، وقد اعتبره الإمام أحمد أفضل ما يتطوَّع به المسلم. ومن ثمَّ جاء في فضله وبيان منزلته عند الله، ومقدار ما لأهله من مثوبة: ما لا يكاد يحصى من آيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولعل هذا ما جعل الشيعة الإمامية يعتبرونه من أركان الإسلام، مخالفين بذلك أهل السنة، الذين اقتصروا على الخمسة المعروفة.

هوامش

1- رواه مسلم في الذكر والدعاء (2699)، وأحمد في المسند (7427)، وأبو داود في العلم (3643)، والترمذي في القراءات (2945)، وابن ماجه في المقدمة (225)، عن أبي هريرة.

2- الفراعين: جمع فرعون. والقوارين: جمع قارون. والهوامين: جمع هامان. والمراد: أصحاب السلطان ووزراؤهم والأثرياء الذين من حولهم.

3- كما قال تعالى: «إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ» (الشعراء:4)، وقال سبحانه: «وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ × أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (العنكبوت: 50، 51).

4- متفق عليه من حديث ابن عمر، وسيأتي تخريجه.

5- انظر: في تفصيل ذلك: كتابنا (عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية).

...يتبع...